سياسات الرعاية الاجتماعية للمسنين بين الفكر الوضعي والتصور الإسلامي

د . أحمد يوسف محمد بشير

بين يدى هذا البحث :

هذا البحث يمثل مساهمة متواضعة على صعيد الجهود المبذولة لتوجيه الخدمة الاجتماعية إسلامياً سواء كان ذلك على مستوى البناء المعرفي النظري أو الممارسة المهنية في شتى المجالات ، إيماناً من الباحث بأهمية وحتمية هذا التوجه الذى يستهدف إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح ، ويتناول البحث أحد المجالات الهامة للممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية وهو مجال "رعاية المسنين" والذى يعتبر "وفقا لتقسيم باركر ١٩٨٧" أحد المجالات المستحدثة للخدمة الاجتماعية[١] مستهدفاً المراجعة النقدية التحليلية للسياسات الاجتماعية إزاء المسنين ، والتى تمخض عنها الفكر الوضعى سواء في المجمعات الغربية (المنتجة لهذه السياسات) أو في المجتمعات العربية والإسلامية والتى يسير معظمها – إن لم يكن جميعها – في إطار النموذج الغربي ، وكيف أن هذه السياسات إنما جاءت ترجمة للسياق الاجتماعى والثقافى للمجتمع الغربى وطبيعة تصوره للإنسان والحياة والمجتمع بشكل عام ونظرتة "للمسن" بشكل خاص .

ونعنى بالسياسات الوضعية "تلك السياسات التى أثمرها الفكر البشري البحت والتى لا تنزع إلى أصل دينى أو توجيه سماوى ، تمييزاً لها عن تلك السياسات التى تستند في توجهها وفلسفتها وأهدافها إلى قيم دينية سماوية تستنير بهديها وتستلهم منها ما يصوب مسيرتها ويرشد اتجاهاتها وأساليبها بما يتفق وطبيعة الإنسان كما خلقه الله عز وجل وهو أعلم بمكوناته ونوازعه ودوافع سلوكه وتصرفاته ما ظهر منها وما بطن ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾[٢] فالسياسات الوضعية إذن هى فكر بشري خالص من حيث الأطر المرجعية والمصدر والأسلوب وظروف النشأة وعوامل التكوين والتطور.

لأن هذا البحث ينظر إلى هذه السياسات الوضعية من زاوية الرؤية وهى رؤية موضوعية تقبل وترفض إلا أنها تقبل ما تقبل عن بينة وترفض ما ترفض عن بينة ، لا شك

---

(1) Paul E. Weinderger ; "Perspectives on Social Welfare" , N. Y; Macmillan Pudlishing Co .; Inc., 1979, P. 56 .

(٢) سورة الملك : الآية ١٤ .

أن لهذه الرؤية أصول وقواعد ومبادئ أساسية وقواعد ثابتة وهى حقائق إيمانية ذات مصدر إلهى .

وبين يدى هذا البحث نطرح تساؤلا مؤداه :

هل نجحت السياسات الاجتماعية الوضعية لرعاية المسنين في تحقيق الأهداف التى تتوخاها، والآمال التى عقدت عليها والمتمثلة في رعاية هذه الفئة وإشباع احتياجاتها ومواجهة مشكلاتها ؟ إن الدراسات والبحوث والكتابات العديدة تؤكد ، والواقع يشهد أن هذه السياسات وما تم في إطارها من برامج وخطط ومشروعات وخدمات لم تحقق بعد ما هو مؤمل منها في هذا الصدد ، لا في المجتمعات الغربية ، ولا في غيرها ، لأسباب ترجع في المقام الأول – في تصور الباحث – إلى العديد من جوانب القصور التى شابت هذه السياسات والبرامج لكونها مبنية على تصور مخالف لطبيعة الإنسان ، هذا بالطبع إلى جانب عوامل أخرى اقتصادية كانت أو اجتماعية أو سياسة ، أو هى جميعا تضافرت فأدت إلى قصور هذه السياسات وعدم فعاليتها في تحقيق أهدافها مما دفع الكثيرين إلى المناداة بضرورة تبنى سياسات جديدة إزاء المسنين تختلف عن تلك السياسات القائمة والتى لم تنجح في حل المشكلة إلى الآن.

إن نقطة الضعف المحورية في هذه السياسات هى استنادها إلى العقل البشري مستقلا عن أى توجيه سماوى ، وهو (العقل البشري) مهما أوتى من كمالات فإنه يتصف بالعجز والقصور ، ولا بد للعقول من نور الوحى لكى يضئ لها الطريق ويبصرها بالنافع من الضار، فالعقل كالعين والوحى كالنور ولا بد للعين من نور ترى في ضوئه[1] .

ويأمل الباحث أن يسهم هذا البحث – على صعيد البحث العلمي – مع غيره من البحوث في هذا الميدان في استنهاض همة الباحثين والمهتمين بمجال رعاية المسنين في بذل المزيد من الجهود نحو بلورة نماذج وسياسات تنبثق من المنظور الإسلامي في إطار التوجه الحالي المعنى بالتوجيه الإسلامي لمجالات الممارسة المهنية .

وعلى صعيد العمل الميداني يتوخى الباحث أن يسهم هذا البحث –على تواضعه– في لفت أنظار المسئولين وصناع القرار والمهتمين بقضايا المسنين إلى العمل على أن تنطلق سياسات وبرامج رعاية المسنين في مجتمعاتنا العربية والإسلامية من الخصوصية الحضارية الإسلامية التى تتمايز –دون أدنى شك– عن منطلقات سياسات الحضارات المادية ، وأن

---

(١) عبد الحميد أحمد أبو سليمان : "أزمة العقل المسلم" ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، الرياض، ط : ٢ ، ١٩٩٢، ص ١٨٢ .

تستلهم هذه السياسات من المبادئ والقواعد التى احتوتها مصادر الثقافة الإسلامية وعلى رأسها الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة (قولاً وعملاً وتقريراً) والممارسات التطبيقية التى حفل بها صدر الإسلام الأول وعصور ازدهار الأمة الإسلامية .

هذا ويدور البحث الراهن حول مجموعة من العناصر هى :

أولاً : أهمية موضوع البحث .

ثانياً : الإطار الاجتماعي والثقافي لظاهرة الكبر .

ثالثاً : مداخل رعاية المسنين في العلم .

رابعاً : العوامل المؤثرة في السياسات الوضعية الحالية لرعاية المسنين .

خامساً : جوانب القصور في السياسات الوضعية وفق الرؤية الإسلامية .

أولاً : أهمية موضوع البحث :

١- لعل النظرة التحليلة لبرامج وسياسات الرعاية الاجتماعية في المجتمعات الصناعية تعكس بوضوح كيف أن هذه السياسات توجه من خلال أيديولوجية المجتمع وفلسفته العامة، مما يشير إلى السمة المحلية لنسق الرعاية الاجتماعية ، واختلافه من مجتمع لآخر نظراً لارتباطه بطبيعة المجتمع وإمكاناته ودرجة تقدمه ، وطبيعة المشكلات التى يواجهها ، وعلى الرغم من ذلك فإن "ظهور الرعاية الاجتماعية في الدول النامية لم يكن استجابة أصيلة لإشباع الاحتياجات الأساسية المراد إشباعها ، وإنما استوردت ونقلت من المجتمعات الصناعية الغربية و لم يبذل جهد يذكر في دراسة التوافق بين هذه التكنولوجيا الجديدة وبين الثقافة المحلية والبناء الاجتماعي الوطنى"(١) .

٢- و لم يختلف الأمر بالنسبة للمجتمعات العربية الإسلامية عن غيرها ، فلقد تأثرت سياسات الرعاية الاجتماعية في هذه المجتمعات بالنموذج الغربي دون اعتبار لخصائص البناء الاجتماعي والثقافي ، والخصوصية التاريخية المتميزة لهذه المجتمعات ، ومدى ملائمة التجربة الغربية لطبيعة المجتمع الإسلامي ، واحتياجات أفراده ، الأمر الذى انعكس - وكان هذا طبيعياً - على درجة فعالية نظم الرعاية الاجتماعية واستجابتها لأهداف واحتياجات المجتمعات الإسلامية ومشكلاتها .

٣- والعجيب في الأمر ، أن تتمسك المجتمعات الإسلامية بالسياسات والنماذج الغربية في الوقت الذى تعالت فيه صيحات النقد والهجوم على هذه السياسات والنماذج حتى من قبل الغربيين أنفسهم حيث يشير "يونس" إلى أن السياسة الاجتماعية الأمريكية

---

(١) إبراهيم عبد الرحمن رجب : "نحو تأصيل الخدمة الاجتماعية في الدول النامية " في : إبراهيم رجب وآخرين : "نماذج ونظريات تنظيم المجتمع" ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، والقاهرة ١٩٨٣ ، ص ١٨٤ .

تعرضت في الثمانينيات لهجوم شديد لفشلها في المحافظة على تنمية الأساليب التقليدية القديمة في مواجهة المشكلات ، وانحسار دور الأسرة والجماعات العرقية والمجتمعات المحلية والهيئات الدينية في هذا الصدد ، الأمر الذى تطلب الدعوة إلى إحياء أساليب الحياة والضوابط التقليدية لا في صورة عودة إلى الماضى ، بقدر ما هى الاستفادة بتجربة الماضى في سياسات اجتماعية تستفيد من الأنظمة التقليدية[1] .

٤- وفيما يتعلق (برعاية المسنين) لم يختلف الأمر كثيراً ، فلقد تأثرت سياسات رعاية المسنين في المجتمعات الإسلامية بالنموذج الغربي الذى نشأ متأثراً بأيديولوجية محددة ونظم سياسة تترجم التركيب الاجتماعي والثقافي والاقتصادي للمجتمعات الغربية ، هذا في الوقت الذى تعرضت فيه السياسات الغربية للهجوم من الغربيين أنفسهم ، وتعالت أصواتهم بضرورة تبنى سياسات جديدة أكثر واقعية وإنسانية لرعاية المسنين من السياسات القائمة ، فلقد أظهرت الدراسات التى درات حول قضايا الكبر والمسنين أن اتجاه المجتمعات الحضرية في البلاد الصناعية إلى الاعتماد على المؤسسات الإيوائية لرعاية المسنين أو الأجهزة البديلة للأسرة في توفير احتياجاتهم قد أظهر كثيراً من العيوب والمآسى الإنسانية ، وأخل بالتماسك بين الفئات لأفراد المجتمع الأمر الذى أبرز أهمية مواصلة الأسرة لدورها باعتبارها الجهاز المجتمعى الأقدر على توفير هذه الرعاية والاحتضان للكبار من أفرادها[2].

٥- إن المشكلات والتغيرات التى يتعرض لها المسنون تختلف من مجتمع لآخر تبعا للسياق الاجتماعي والثقافي الذى يعيشون في كنفه والذى يحدد طبيعة نظرة المجتمع لكبار السن وموقفه منهم ، ومن هنا كان من الضرورى والأمر كذلك أن تختلف السياسات والبرامج المعتمدة لمواجهة هذه المشكلات ورعاية هذه الفئة بحيث تأتى منسجمة مع هذا السياق .

٦- إن أهم ما يلفت النظر في السياسات الاجتماعية إزاء المسنين في المجتمعات العربية الإسلامية أنها تدور حول عناصر جزئية مبتسرة تفتقد التكامل والشمول في مواجهة وعلاج المشكلات وإشباع الاحتياجات ، ودون ربط كافة العناصر المجتمعية والحضارية في نطاق شمولى متكامل ، وبالنظر إلى أدبيات رعاية المسنين في هذه المجتمعات نجد أنها - في الأغلب

---

(١) الفاروق زكى يونس : "سياسة الرعاية الاجتماعية من منظور إسلامي" ، بحث مقدم إلى ندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي القاهرة ، (١٠-١٣ أغسطس ، ١٩٩١ ، ص : ٩-١٠) .

(٢) على فؤاد أحمد : "العمل الاجتماعي مع المسنين" في : عزت سيد إسماعيل وآخرين : التقدم في السن دراسات نفسية اجتماعية ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٤ ، ص١٨٣ .

الأعم - تغفل "محورية" البعد الروحي والأخلاقي في مواجهة مشكلة المسنين أو حتى في نشأتها ، وتغفل أيضا البعد الخاص بتميز وخصوصية المعالجة الإسلامية لهذه المشكلة وإن ذكر هذا البعد فإنما يشار إليه على استحياء في إطار هامشي يتعلق بإشارات مقتضبة حول اهتمام الأديان السماوية "والإسلام من بينها" دون اهتمام بترجمة هذا البعد الحيوى والهام ليكون محوراً تدور حوله كافة سياسات وبرامج وأشكال رعاية المسنين في هذه المجتمعات.

٧- إن هذا البحث يمثل رؤية مهنية - من وجهة نظر الخدمة الاجتماعية - فيما يتعلق بسياسات رعاية المسنين ، خاصة وأن دور الخدمة الاجتماعية كمهنة لم يعد قاصراً على تنفيذ برامج ومشروعات الرعاية الاجتماعية فحسب وإنما أصبح من الأغراض الأساسية لها المساهمة في صنع وتطور السياسة الاجتماعية والعمل ، والعمل على سد الفجوة بين احتياجات نسق العمل وتشريعات السياسة الاجتماعية(١)، ومن ناحية أخرى فإن الخدمة الاجتماعية كمهنة تلعب أدوارا أساسية في مجال العمل مع المسنين وتنظيم برامج رعايتهم ، ليس فقط فيما يتعلق بتقديم الخدمات المباشرة للمسنين ، وإنما تعمل في ذات الوقت بفضل وضعها المتميز وخصوصيتها المتفردة بين مهن المساعدة الإنسانية ، على دعم الجهود المتنوعة والتنسيق والربط فيما بينها بما يحقق أكبر عائد لصالح المسنين والمجتمع .

٨- إن هذا البحث يرتكز على خصوصية الرؤية الإسلامية في مجال رعاية المسنين في المجتمعات العربية الإسلامية الأمر الذى يرجع ضمن ما يرجع إلى المبررات التالية :

- أن الإسلام هو دين هذه المجتمعات ويشكل عصب نسيجها الثقافي ، وله خصوصيته المتميزة من حيث كونه منهجاً شاملاً للحياة بجميع جوانبها ومجالاتها .
- أنه يستلزم - في ضوء هذه الخصوصية - ضرورة تحقيق الانسجام بين الارتباط العاطفي به في الجانب العقدي والروحي والفردي ، والارتباط الواقعي والعملي في الجانب التشريعي والتنظيمي والاجتماعي والمؤسسي .
- ومن هنا تكتسب الدعوة إلى التوجيه الإسلامي للعلوم الاجتماعية ومهن المساعدة الإنسانية والنظم الاجتماعية في المجتمع المسلم أهميتها البالغة باعتبارها عاملاً أساسياً من عوامل تحقيق هذا الارتباط المنشود .
- وما دامت الخدمة الاجتماعية هى إحدى مهن المساعدة الإنسانية ، يصبح من الضروري والمنطقي ، في نفس الوقت الاهتمام بتوجيه تعاليمها ومناهجها ومجالات ممارستها وفقا لهدى الإسلام وتوجيهاته .

---

(1) Allen Pincus & Anne Minahan., "Amodel for Social Work Practice" in Harry Specht & Anne Vickery (eds) "Integrating Social Work Methods, London, Jeorge Allen & Univ, 1977, P. 75-77 .

• وتتعاظم أهمية صياغة الخدمة الاجتماعية فلسفة وغاية ومنهجا وممارسة في إطار التوجيه الإسلامي في ضوء إدراكنا لأهمية هذه المهنة في حياة المجتمعات .

٩- أصبحت مشكلة المسنين واحدة من القضايا الهامة المطروحة على صعيد المجتمعات الغربية الصناعية وبدأت تلحق بها في ذلك المجتمعات النامية بما فيها المجتمعات الإسلامية ، ويرجع تزايد الاهتمام بقضايا المسنين ، في العصر الحاضر إلى مجموعة من العوامل أهمها :

أ- شهد هذا القرن في كثير من مناطق العالم زيادة كبيرة في أعداد المسنين ونسبتهم إلى مجموعة السكان بالمقارنة بأعدادهم ونسبتهم في القرون السابقة ، وطبقاً لتقديرات الأمم المتحدة فإن عدد الأشخاص الذين بلغوا سن الستين أو تجاوزوها سيتزايد حتى عام ٢٠٠٠ إلى أن يبلغ ٥٩٠ مليون مسن وسيشكل المسنون نسبة ١٤٪ من سكان العالم بعد أقل من ٥٤ عاماً(١)، كما أن هذه المعدلات إنما تعنى في الواقع زيادة في الطلب على برامج الرعاية الاجتماعية والخدمات الطبية والعلاجية الأمر الذى أصبح يقلق بال صانعي القرارات في المجتمعات المعاصرة .

ب- دواعى عصرية ترجع إلى طبيعة العصر والتغيرات السريعة والمتلاحقة ، إذ إن مشكلة المسنين هى وليدة الصناعة والتقدم المادي والتكنولوجي ، وهى نتاج التنظيم الاجتماعي المعاصر الذى أحدث الكثير من التغيرات الاجتماعية وبالذات في البناء الأسري ويشير (براون Browin .C) إلى ذلك بقوله : "إن الأسرة ظلت مسئولة عن رعاية مسنيها لفترات طويلة إلى أن جاء التحضر والثورة الصناعية فأثرا تأثيراً سلبياً على هذا الدور"(٢) .

جـ- دواعى دينية حيث يعد الاهتمام بالمسنين ورعايتهم وتوفير الاحترام والتقدير الخاص لهم من الأمور التى أولتها الشرائع السماوية (والإسلام خاتمها) عناية خاصة في إطار اهتمامه بالإنسان ، في شتى مراحل حياته .

د- دواعى تنموية ، تتمثل في أن ظاهرة الكبر الفردي والكبر السكانى لها تأثيرها إن سلباً أو إيجاباً ، ففي حالة إهمال الأعداد المتزايدة للمسنين قد تؤدى إلى إعاقة حركة التنمية على المستوى القومى، وفي حالة الاهتمام بوضع السياسات التى تتوخى تحقيق المشاركة الفعالة للمسنين في شئون المجتمع والحياة العامة تؤدى إلى دفع مسيرة التقدم والتنمية .

---

(١) إبراهيم خليفة – عبد الله الشمرى : "الاستفادة من القدرات الكامنة لدى المسنين لرعاية الطفولة في الوطن العربى" ، مجله المستقبل العربي ، العدد (٦٧) سبتمبر ١٩٨٤ ، ص ٥٣ .

(2) Charance Browin & Mary O'day ; "Services to the Elderly" , in Neil Gilbert & Harry Soecht , (eds), Handbook of the Society Services, New jersy ; Prentice - Hall Inc, 1981, p. 102 .

هـ- دواعى علمية تتمثل في ازدياد الوعى علمياً بما يواجهه المسنون من مشكلات نفسية واجتماعية وصحية واقتصادية ، وظهور علوم جديدة أسهمت بقدر كبير في تفهم الظواهر المختلفة المرتبطة بالكبر مثل علم الكبر ، وعلم طب الكبر ، وعلم الطب الاجتماعي.

١٠- أن ثمة حقائق ومسلمات يستند إليها البحث الراهن لعل أهمها :

- أن هذا البحث وهو يسعى إلى المراجعة النقدية للسياسات الوضعية لرعاية المسنين من زاوية الرؤية الإسلامية لا يقف موقف الرافض لهذه السياسات جملة وتفصيلا ، ولا ينطلق من افتراض أن هذه السياسات هى خطأ مطلق أو شر محض فإن ذلك يتنافى مع إحدى البديهات الإسلامية التى تنص على أن " الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها" .

ثانياً : الإطار الاجتماعي والثقافي لظاهرة الكبر :

لا شك أن للسياق الاجتماعي الذى يعيش فيه المسنون وطبيعة نظرة المجتمع لهم ولمشكلاتهم أثره على درجة اهتمام المجتمع بالتعامل مع هذه المشكلات من ناحية ، والتعامل مع أصحابها من ناحية أخرى ، ذلك السياق وتلك النظرة التى يعد من بين محدداتها الأساسية المعارف الإنسانية والتجارب والخبرات التى كثفت لتصبح نوعاً من العادات والتقاليد والأعراف والقيم التى تحكم سلوك الأفراد والجماعات وتوجه المجتمع وفلسفته في الحياة ، ولما كان لكل مجتمع محدداته الخاصة به وبالتالى إطاره الثقافي وخصوصيته الحضارية كان لابد - تبعا لذلك - أن يختلف وضع المسنين ، ونوعية المشكلات التى تواجههم ، وطبيعة البرامج الموجهة لرعايتهم من مجتمع لآخر ويرى (جيمس بيرين J . E . Biran) أن ثمة محكين رئيسيين للشيخوخة الناجحة (Aging Successful) أحدهما داخلى سيكولوجى يتعلق بالمسن ذاته ، والآخر خارجي اجتماعي يتعلق بالسياق المجتمعي الذى يعيش فيه ، وما بين هذين المحكين من ارتباط وثيق وتفاعل حتمى ، ويتضمن المحك الأول الرضا عن الحياة كما يخبره الشخص المسن وما لديه من اتجاهات إيجابية خاصة باعتبار الذات (أى نظرة المسن لنفسه) ، أما الآخر فيتعلق بكفالة الفرد لأدواره الاجتماعية ، هذا المحك يتحدد بدوره بموقف المجتمع من المسنين ومن ظاهرة تقدم العمر ، ويتجلى ذلك في اتجاهات الأبناء والشباب والراشدين نحو المسنين ونحو ظاهرة الشيخوخة(١) .

---

(1) J . E . Biran "Sychology of Agging" , New Jersey ; Prentice - Hall, Inc. 1964, p. p. 237-238 .

ورغم اتفاق الباحث مع هذا الرأى على المستوى التحليلى إلا أنـه يـود التأكيد على أهمية الإطار الثقافي والحضاري الذى يحكم كلا المحكين معا ، ذلك الإطار الذى يشكل ويحدد نظرة المسن إلى نفسه وإلى مرحلة التقدم في العمر من ناحية ، ونظرة المجتمع والأجيال المعاصرة للمسنين من ناحية أخرى ، وتمشياً مع تلك النظرة التحليلية فإننا نتناول فيما يلى هذين المحكين ودورهما في تحديد طبيعة ظاهرة الشيخوخة ومشكلات وأساليب مواجهة هذه المشكلات .

١- المحك الاجتماعي (نظرة المجتمع للمسنين) :

يقرر "إيريك إريكسوف" فى نظريته للنمو أن الشيخوخة تعتبر مرحلة (نمائية) تتحدد كثيراً بالواقع الثقافي وبنظرة المجتمع إلى ظاهرة التقدم في السن ، والتى تجعل من هذه المرحلة مرحلة نمائية عادية أو مرحلة (أزمة Crisis)[١] الأمر الذى يؤكد أهمية دور البيئة والمجتمع والمواريث الثقافية والتاريخية وانعكاساتها على موقف المجتمع من المسنين بشكل عام ؛ ولذلك وجدنا أن وضع المسنين يختلف من مجتمع لآخر ومن وسط اجتماعي وثقافي إلى وسط آخر مختلف عنه .

أ- فبالنسبة للمجتمعات التقليدية :

فإن الموقف الاعتباري للمسنين يرتكز على إمكانات البناء الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع والذى يغلب عليه النشاط الزراعى ونمط العائلة (الأسرة الممتدة) حيث كان في استطاعة المسنين القيام بأعمال ذات فائدة جمة للأسرة والمجتمع[٢] حيث ينظر إليهم كمعلمين ومستشارين لهم باع طويل في الحكمة والتجربة العملية في الحياة كما أن خبراتهم ومهاراتهم المكتسبة على مدار الحياة أساسية ، حيث أسهمت إسهاماً جوهرياً في تقدم أسرهم وفي تقدم الجماعة ككل ، وحتى في حالة عجز المسن عن الإنتاج الجسمانى فإن قيمته داخل الأسرة لا تهتز حيث ينظر إليه دائما كمثل أعلى يحتذى به ومصدر للنصيحة المتكاملة ، وتعتبر رعاية الشخص المسن مسئوليه الأسرة الأساسية ، وكان الشخص المسن يشارك الأسرة في المسكن طيلة حياته[٣]، ولا شك أن ذلك كله من شأنه أن ينعكس على نظرة المسن لذاته ويخفف من الآثار والاضطرابات النفسية والاجتماعية التى تواجهه .

---

(١) طلعت منصور غبريال : "دراسة في الاتجاهات النفسية نحو المسنين لدى بعض الفئات العمرية في المجتمع الكويتى ، مجلة العلوم الاجتماعية ، الكويت ، ربيع ١٩٨٧ ، ص٧ .

(٢) صلاح عبد المتعال : "مستقبل التمية " نحو بديل حضاري إسلامي ، دار الشرق الأوسط للنشر ، القاهرة ١٩٩١ ص ٩٩ .

(٣) راشد محمد أبا الخليل : الشيخوخة ومراكز العناية بالمسنين فى العالم" دار الخريف ، الرياض ١٩٩١ ، ص ٥٣ .

ب – وفيما يتعلق بالمجتمعات الصناعية المتقدمة :

فإن الأمر مختلف ، تبعا لاختلاف البناء الاجتماعي والاقتصادي الذى يغلب عليه النشاط الصناعي والتقدم التكنولوجي ونمط الأسرة النووية المنعزلة ، وأدى التخصص وتقسيم العمل إلى زيادة اعتماد الإنسان على غيره اجتماعياً إلى حد بعيد ، هذا بالطبع فضلاً من ضياع القيم العائلية وسيادة المعايير المادية في تقييم العلاقات الإنسانية ، كل ذلك أدى إلى مجموعة من النتائج لأوضاع المسنين في هذه المجتمعات لعل أهمها :

- تدهور المكانة الاجتماعية للمسنين في هذه المجتمعات التى تقوم على تقديس العمل والإنجاز والقوة والشباب .
- النظر إلى المسنين على أنهم يشكلون عبئاً على عائلاتهم وعلى المجتمع ككل .
- عزلة المسنين عن المجتمع وانزواؤهم عن الحياة الاجتماعية .
- تقلص (أو فقدان) الأدوار الاجتماعية للمسنين بالنسبة للأسرة في المجتمع .
- تراجع دور الأسرة في رعاية مسنيها لتحل محلها مؤسسات أخرى .
- أصبح التقدم في السن يمثل شبحاً مخيفاً للإنسان .

ونكتفى هنا بهذا ، وسوف نتناول بالتفصيل واقع المسنين في المجتمعات الغربية الحديثة فيما بعد .

جـ– واقع المسنين في المجتمعات الإسلامية :

وإذا نظرنا إلى الواقع الاجتماعي للمسنين في المجتمعات العربية الإسلامية لوجدنا أنه لاينفصل عن الركائز الحضارية لها مهما طرأ عليها من تغييرات سياسية واقتصادية ، إذ أن الإيمان با لله وأفعال البر بالوالدين ومن في مقامهما من أهم الثوابت الراسخة ، ومهما حدث من تشوهات وبقع سوداء متناثرة في نسيج العلاقات الوالدية إلا أن القاعدة العامة هى احترام علاقات الآبناء وكبار السن ، مما يشكل توجهاً حضارياً يؤثر في السياسات الاجتماعية إزاء المسنين أو ينبغى له ذلك .

وعلى الرغم من ذلك فإن هناك بوادر تشير إلى أن هذه الأوضاع آخذه في التغيير ، وأن ثمة تحويلات طرأت على هذه المجتمعات لها آثارها السلبية على هذه الفئة مع مشاغل التنمية التى تحتل مساحة كبرى من اهتمام هذه المجتمعات .

إن قيماً جديدة مرتبطة بالتحضر الزائد تطغى على بعض القيم التقليدية الأصيلة التى كانت تفرد مكانة خاصة لكبار السن في المجتمع الإسلامي ، كما أن التغييرات الاجتماعية الكبيرة والتطورات السريعة كل ذلك أفقد بعض المسنين قسطاً من الأدوار التقليدية التى كانت وقفاً عليهم ، والتى كانت تلعب دوراً هاماً في توافقهم النفسى والاجتماعي واختزال

ما يمكن أن يتعرضوا له من مشكلات ومصاعب(١) وأعطى المسنين شعوراً بالعزلة المتزايدة حتى وإن لم يكونوا بالفعل معزولين ، كما أن هذه الأوضاع والاتجاهات يرجح جداً أن تتزايد مستقبلاً ، الأمر الذى يحتم سرعة تدارك الموقف والاستعداد له لتحاشى تضخم المشكلات واستفحالها وصعوبة مواجهتها .

وهناك بعض الدراسات التى تشير إلى بروز مشكلة المسنين في بعض المجتمعات العربية وتعزو ذلك لعوامل التصنيع الحديث ، وتغير تركيب الأسرة ، واختلاف دور المرأة والهجرة المتزايدة للمناطق الحضرية(٢) .

إن ما ذكرناه آنفاً لا ينفى أن هناك بعض الجوانب الإيجابية التى تتميز بها المجتمعات العربية الإسلامية ، والتى يمكن استثمارها وتدعيمها والاستفادة منها لصالح المسنين هذه الجوانب نذكر منها :

- أن هذه المجتمعات لم تعرف بعد المشكلات التى يتعرض لها كبار السن بالحدة نفسها التى عرفتها المجتمعات المتقدمة ، وأن مشكلة المسنين لم تأخذ بعد شكلا صارخاً وحاداً .
- ارتباط كبار السن بالسلطة والمكانة داخل الأسرة وخارجها الأمر الذى يتصل بدوره بالعلاقة بين كبر السن والوقار والاتزان والحكمة .
- ارتباط الكبر بطبيعة العلاقة بين الأبناء والآباء خاصة الاتجاه الإيجابي القوى من الأبناء نحو آبائهم ، ذلك الاتجاه المستند بشكل قوى على القيم الإسلامية السائدة .
- أن هذه المجتمعات – انطلاقاً من تعاليم الإسلام وقيمه السامية – مازالت تقدر قيمة المسنين وتعطيهم حقهم في الاحترام والتقدير والمشورة والقيادة .
- أنه وحتى في المناطق الحضرية ، ورغم تحول الأسرة من النمط الممتد إلى النمط النووي فإن هذا الأخير (الأسرة النووية) يأخذ طابعاً في المجتمعات العربية يختلف عما هو موجود في المجتمعات المتقدمة ، ذلك أن الأسرة النووية المسلمة في المجتمع العربي تعتبر غير منعزلة عن أسرتى التوجيع (Orientation Famillies) (أسرة الزوج وأسرة الزوجة) ، فلقد أثبتت بعض الدراسات التى تمت في هذا الصدد أن الزوج والزوجة على صلة بالنسق القرابى حتى في المستويات الثقافية العليا(٣).

---

(١) إبراهيم خليفة – عبد الله الشمرى : الاستفادة من القدرات الكامنة لدى المسنين لرعاية الطفولة في الوطن العربى" ، مجلة المستقبل العربى ، العدد (٦٧) سبتمبر ١٩٨٤ ص٤٩ .

(٢) راشد محمد أبا الخليل : الشيخوخة ومراكز العناية بالمسنين فى العالم" دار الخريف ، الرياض ١٩٩١ ، ص ١٥٠ .

(٣) سناء الخولى : "الأسرة فى عالم متغير" الهيئة المصرية العامة لكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص١١٢ .

ولعل أبلغ دليل على عدم عزلة الأسرة النووية في المجتمع العربي المسلم ما نلمسه من اقتناع نظري وعملي بالعون المتبادل حسب الظروف ، والذى يعكس الرواسب القوية لطابع الأسرة التقليدية ، كما يعكس الجذور العميقة لنسق القيم الذى يرتكز على مبادئ العون لذوى القربى وخفض جناح الذل من الرحمة للو الدين ومن في حكمهما[1].

٢- المحك السيكولوجي (نظرة المسن لذاته) :

وتتحدد هذه النظرة - كما سبق وأشرنا - بدرجة كبيرة بموقف المجتمع وثقافته من فئة المسنين، الأمر الذى يعبر عن نفسه من خلال الاتجاهات الاجتماعية التى تبديها الأجيال المختلفة (الصغار والشباب والرجال) حيال هذه المرحلة العمرية المتقدمة من حياة الإنسان ، كما أن نظرة المسن ، لذاته والفكرة التى يكونها عن نفسه لا تنشأ بعد وصوله إلى هذه المرحلة وإنما تتكون خلال السنوات السابقة من حياته ، وتعتمد على الاتجاهات الاجتماعية نحو الموضوع أكثر من الخبرة الشخصية في معايشة هذه الفترة ، وإذا كانت هذه النظرة أو الفكرة سلبية وغير محببة فإنها تؤدى إلى التخوف من الوصول إلى مرحلة الشيخوخة[2] وفي هذه الحالة فمن المتوقع أن يخبر المسن هذه المرحلة كأزمة (Crisis) في الغالب وهى ما يطلق عليه "ايريكسون" أزمة تكامل الأنا التى تبدو في شكل اليأس والقنوط اللذين يسيطران على الحياة النفسية للمسن[3] .

ويحدث العكس إذا كانت هذه النظرة تتسم بالإيجابية فإن ذلك يؤدى إلى تكامل الأنا الذى هو حالة عقلية قوامها اقتناع الشخص المسن بأن لحياته نظاماً ومعنى وبأنها مقبولة وضروزية[4] .

وبينما تتضمن الاتجاهات الاجتماعية التى يحملها المجتمع الغربي نحو المسنين (كما سيتبين) اتجاهات سلبية غير مرضية تجعل من الصعب أن يرى المسن هذه المرحلة إلا على أنها مرحلة سلبية من مراحل الحياة ، ونجد أن التقدم في العمر في المجتمع المسلم لا يمثل أزمة بالنسبة لمسن ، حيث لازال المسنون يحتلون مكانة اجتماعية لائقة قوامها الوفاء والاحترام والتقدير في ظل التعاليم الإسلامية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الإسلام يربى

---

(١) إبراهيم خليفة - عبد الله الشمرى : الاستفادة من القدرات الكامنة لدى المسنين لرعاية الطفولة في الوطن العربي": مجلة المستقبل العربى ، العدد (٦٧) سبتمبر ١٩٨٤ ص ٥٤ .

(٢) إبراهيم خليفة - عبد الله الشمرى : الاستفادة من القدرات الكامنه لدى المسنين لرعاية الطفولة في الوطن العربي"، مجله المستقبل العربي ، العدد (٦٧) سبتمبر ١٩٨٤ ص ٥٠ .

(٣) طلعت منصور غبريال : "دراسة في الاتجاهات النفسية نحو المسنين لدى بعض الفئات العمرية في المجتمع الكويتى ، مجلة العلوم الاجتماعية ، الكويت ، ربيع ١٩٨٧ ، ص٧٤ .

(٤) طلعت منصور غبريال : "دراسة في الاتجاهات النفسية نحو المسنين لدى بعض الفئات العمرية في المجتمع الكويتى ، مجلة العلوم الاجتماعية - الكويت ، ربيع ١٩٨٧ ، ص٧٤ .

المسلم على الأمل والرجاء في رحمة الله ، ويرفض اليأس والقنوط مهما كانت الظروف – قال تعالى– ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[1] فالمؤمن –حال كونه مؤمناً– لاييأس من روح الله عز وجل ولا يقنط من رحمته ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ...﴾[2] كما أن تعاليم الإسلام تربى المسلم على أن ينظر إلى الشيخوخة والتقدم في العمر على أنها نعمة من الله – عز وجل – ففي الحديث "الا أخبركم بخياركم قالوا بلى ، قال : خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أعمالاً"[3] وفي الحديث أيضا : "خير الناس من طال عمره وحسن عمله"[4] .

إن المسلم – وفقا لعقيدته – ينظر إلى هذه الحياة على أنها إحدى نعم الله عليه ومن حقه أن يتنعم بما فيها من خير ، وعليه – في المقابل – أن يصبر على ما فيها من ضر ، فإنه أصابته النعماء شكر ، وإذا حلت به الضراء صبر كما جاء في الحديث "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له"[5] .

وإذا كان "إدوارد كاندا" يقرر أن لكل إنسان حاجات روحية تتصل بإيجاد معنى وهدف لهذه الحياة وأن المعتقدات والممارسات الدينية غالباً ما تلعب دوراً حاسماً في فهم الإنسان لنفسه وللعالم من حوله ، خصوصاً فيما يتعلق بالتوصل إلى نوع من المعنى والهدف في العلاقات بين الذات والآخرين والبيئة والحقيقة المطلقة[6] فإن المسلم لا ينظر للحياة نظرة قوامها العبثية وضياع المعنى والهدف وإنما ينظر إليها على أنها دار ابتلاء واختبار ﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾[7] وعلى المؤمن أن يأخذ على عاتقة ما يمكنه من اجتياز هذا الاختبار بنجاح سيراً على منهج الله واستهداء بنور شريعته الغراء .

وإذا كان البعض يعتبر أن أزمة التقدم في العمر هى انعكاس للايقين بالدور الاجتماعي (Social Role Uncertainly) فإن المسن في الإسلام لا ينتهى دوره في الحياة والمجتمع لمجرد بلوغه هذه المرحلة وإنما يتعاظم هذا الدور حكمة وعطاءا وعملاً واجتهاداً ،

---

(١) سورة يوسف : الآية ٨٧ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٥٣ .

(٣) رواه الحاكم عن جابر .

(٤) رواه أحمد والترمذى عن عبد الله بن بشير ورمز السيوطى لصحته .

(٥) رواه مسلم عن صهيب بن سنان .

(٦) إبراهيم عبد الرحمن رجب : "المنهج العلمى من وجهة نظر إسلامية في نطاق العلوم الاجتماعية ومهن المساعدة عبد الانسانية"،بحث مقدم إلى ندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية ، للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة ، (١٠-١٣ أغسطس ١٩٩١)، ص ٥٩ .

(٧) سورة الملك : الآية ٢ .

وهو (المسلم) لا يعرف ما يسمى باللايقين باللدور الاجتماعي ، حتى ولو كانت نظرة المجتمع واتجاهاته نحو مرحلة التقدم تخلق مناخاً مهيئاً لهذه الحالة ، وإنما – في ظل الهدي الإسلامي – يوطن نفسه على أن يكون له يكون له دوره الفعال في هذه الحياة مهما كانت سلبيات المناخ الذى يعيش في كنفه ، وهو يعلم أن عليه ألا يكون إمعة يقول إذا أحسن الناس أحسنت وإذا أساءوا أسات ، وإنما يوطن نفسه إذا أحسنوا أن يحسن وإذا أساءوا أن يتجنب إساءتهم ويظل على إحسانه "فالإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه كائن ذو وعى وذو إرادة يوجه حياته كفاعل وليس كمجرد كائن منفعل بالمؤثرات الخارجية"(١).

ثالثاً : مداخل رعاية المسنين في العالم :

إن السياسة الاجتماعية لرعاية المسنين في أى مجتمع إنما هى انعكاس طبيعى لظروفه وأوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، التى تحدد خيارات المجتمع إزاء نوع الرعاية التى يوجهها للمسنين سواء رعاية أسرية أو رعاية مؤسسية إيوائية ، ومن هنا سلكت المجتمعات في معالجتها لمشكلة المسنين طرقاً متعددة ، ولكل مجتمع طريقته الخاصة المرتبطة بثقافته ، وبنوع نظرته لمرحلة التقدم في العمر وكذلك نظرة المختصين وصناع القرارات والسياسات لهذه الفئة العمرية .

وعلى الرغم من أن معظم المجتمعات قد بدأت بالفعل في معالجة مشكلة المسنين وذلك بوضع السياسات والخطط والبرامج اللازمة لرعاية هذه الفئة طبقاً لظروف كل مجتمع وثقافته ، إلا أنه لم يصل أى مجتمع حتى الأن إلى تطوير نظام رعاية شاملة ومتكاملة للمسنين، ويكشف استعراض التراث البحثي والدراسات المتعددة في مجال سياسات رعاية المسنين في المجتمعات الغربية عن أن هناك محاولات جادة للسيطرة على حاجات المسنين ومشكلاتهم كما تراها هذه المجتمعات ، وأن هناك أكثر من مدخل لتوفير الرعاية المنظمة لهذه الفئة من سكان المجتمع .

ومن الملاحظ أن التجربة الغربية لا ترتكز على استخدام مدخل واحد دون غيره من المداخل بل إن هناك تعددية في النظم المختلفة(٢) وطبقاً لما تقرره منظمة الصحة العالمية :

---

(١) إبراهيم عبد الرحمن رجب : "مداخل التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية" ، بحث مقدم إلى ندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي القاهرة : (١٠-١٣ أغسطس ١٩٩١) ، ص ٧٣.

(٢) محروس محمود خليفة : "دراسة عن الوضع الراهن لرعاية المسنين فى المملكة العربية السعودية ، البرامج والمؤسسات" المنامة ، البحرين ، الندوة العلمية لرعاية المسنين بالدول العربية الخليجية ١٩٨٢ ، ص٥٢.

"فإن النظم والمداخل الحالية لتقديم الخدمات لرعاية المسنين أصبحت مجال انتقاد لأنها مجزأة وليست منظمة بل تفتقر إلى معايير بديهية لتوفير الخدمات[1] .

وبصفة عامة يمكن تصنيف المداخل والنماذج السائدة لرعاية المسنين إلى ثلاثة أنواع على النحو التالى :

١ – المدخل الأسرى Family Care Approach :

ويقصد به الرعاية داخل الأسرة أو عن طريقها بحيث يتحمل عضو أو أكثر من أعضاء الأسرة مسئولياتهم تجاه رعاية الآباء والأمهات المسنين أو أى فرد ينتمى إلى الأسرة كالأشقاء أو زوجاتهم...إلخ.

وتتمثل أهمية هذا المدخل فى كونه أفضل المداخل لرعاية المسنين لكونه ينسجم والطبيعة الإنسانية ، إذ إن استمرار وجود المسن فى نفس المناخ الأسرى الذى أمضى فيه حياته يبعث على اطمئنانه النفسي وتوافقه الاجتماعي ، ذلك المناخ الذى يزداد جاذبية مع التقدم فى السن حيث إنه يمثل تجسيداً لكل ارتباطاته العاطفية والاجتماعية ، كما أن وجود الإنسان في وسط الأشياء التى أحبها يمده باستمرار بذكريات الأوقات الخالية[2] .

وتشير نتائج العديد من الدراسات والبحوث إلى أن كبار السن الذين يوجد لديهم أبناء بالغون يفضلون تلقى الرعاية فى بيوت أبنائهم رافضين أى شكل من أشكال الرعاية المؤسسية الداخلية المغلقة متى توافرت الظروف لذلك[3] .

ولاشك أن لهذا المدخل التقليدي أهميته القصوىبالنسبة لمجتمعاتنا يتفق ، حيث أن الطبيعة الاجتماعية للإنسان العربى وخصائص العلاقات الإنسانية ، فى هذا الصدد كشف استطلاع رأى لعينة من كبار السن فى سلطنة عمان عن رفض أغلبيتهم الرعاية خارج بيئاتهم الأسرية[4] ولقد أكد الإسلام على هذا النمط من الرعاية وأولاه عناية خاصة بحيث

---

(١) راشد محمد ابا الخليل : "الشيخوخة ومراكز العناية بالمسنين فى العالم" دار الخريف ، الرياض ١٩٩١ . ص ٣٦ ، ص٣٦.

(٢) روبرت هوجرنوت : "نحو شيخوخة جديدة" . مجلة العلم والمجتمع ، العدد (٧٥) ، "الشيخوخة وتطور بحوثها"، مجلة ربعسنوية تصدر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ، اليونسكو ، باريس ، يونية /أغسطس ١٩٨٩ ، ص٤.

(٣) وحيد الدين خان "الإسلام والعصر الحديث" ترجمة ظفر الإسلام خان النفائس ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٦ ، ص١٦٨ .

(٤) صلاح عبد المتعال : "مستقبل التمية" نحو بديل حضارى إسلامى ، دار الشرق الأوسط للنشر ، القاهرة ، ، ص ١١٨ ١٩٩١.

جعله الأمان للإنسان حينما يصل إلى هذه المرحلة من العمر ، إن جميع برامج وأجهزة رعاية المسنين على تنوعها ومهما كان مستوى أدائها مرتفعاً وكفاءة العمل بها عالية لايمكن أن توفر للمسنين ماتوفره الأسرة لهم من حب حقيقى وعلاقات حميمية، وأمان ومشاعر إنسانية، كما أن كفالة الأسرة لمسنيها ورعايتها لهم لاتعود فائدته على المسن وحده إنما تعود على أفراد الأسرة جميعاً صغاراً وكباراً فهى تنمى ذلك الشعور بالانتماء الإنساني الذى لابد وأن ينمو فى الأسرة حتى يمتد من أفرادها إلى جيرتهم ومجتمعهم ووطنهم الأكبر(١) وكحل لمشكلة المسنين فى المجتماعات الغربية اقترح "ألفين توفلر" فى كتابه "الموجة الثالثة" ضرورة العودة جزئياً إلى التقاليد التى تجعل المسنين لاينعزلون عن أسرهم وأحفادهم بعمل طوعى من الجيل الناشئ ، مع تقديم المغريات المادية والحكومية (كتخفيض الضرائب مثلا) للأسرة التى تهتم بمسنيها وترعاهم صحياً واجتماعياً ونفسياً بدلاً من تركهم ينتظرون الموت فى دور العجزة(٢) وفى نفس الاتجاه يشير "روبرت هوجوزت" إلى أن أسر وعائلات المسنين أنفسهم ينبغى أن تشكل عنصراً أساسياً فى السياسات الاجتماعية لرعاية المسنين(٣) .

٢- مدخل الرعاية المفتوحة للمسنين Open Care for the Aged :

بدأ هذا النظام فى السويد كنظام أساسى لرعاية المسنين فى المجتمع ، وانتقل إلى عدد آخر من المجتمعات الأوربية ، وهو نظام للخدمات لتدعيم الحياة المجتمعية ، ويرمى إلى العمل بعيداً عن الجهود المؤسسية أو الرعاية الأسرية ، ويقصد به أحياناً العيش فى الفنادق الترفيهية أو بخدمات المنازل وهو مايعنى العيش فى وسط من الخدمات ، ويستند هذا النموذج إلى توفير ظروف أسرية محلية أو ظروف بيئية مشابهة للحياة الأسرية للشخص المسن الذى يكون بحاجة للرعاية ويشمل هذا النظام العديد من البرامج والخدمات منها :

خدمات الرعاية المنزلية .

خدمات بيوت التمريض .

خدمات بيوت المسنين .

---

(١) على فؤاد أحمد : "العمل الاجتماعى مع المسنين" فى عزت سيد إسماعيل وآخرين : التقدم فى السن دراسات نفسية اجتماعية دار القلم ، الكويت ١٩٨٤ ، ص١٩١.

(٢) مظفر صلاح الدين شعبان : "المسنون بين العلم والحضارة" مجلة الفيصل ، دار الفيصل الثقافية ، عدد (٦٨) الرياض ، ديسمبر ١٩٨٣، ص١٢٣.

(٣) روبرت هوجونوت : "نحو شيخوخة جديدة" مجلة العلم والمجتمع ، العدد (٧٥) ، "الشيخوخة وتطور بحوثها" ، مجلة ربع سنوية تصدر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ، اليونسكو باريس ، يونية/أغسطس ١٩٨٩ ، ص٥.

خدمات الغرف .

خدمات الرعاية الطبية طويلة الأمد .

ويلاحظ أن غالبية هذه البرامج تقوم على أساس أن المسنين من الفئات المعتمدة على الاخرين ، أى أنهم فاقدون للقوة والقدرة ، ومن هنا فإن هذا النظام ينقصه الاستفادة من المسنين كطاقة إنتاجية فى المجتمع بسبب هذه النظرة السلبية ، ويشير "هوجونوت" إلى أن تطبيق نظام خدمات الرعاية المنزلية فى فرنسا منذ بداية السبعينات ، قد عمل فى أحيان ليست قليلة على تقييد المهارات الذاتية لدعم المسن من قبل جيرانه أو حتى أقاربه ، ومن هنا ظهرت الحاجة من جديد – على حد قوله – إلى تعريف وتعليم وتدريب عائلات المسنين وأقاربهم وجيرانهم وتحريك دوافعهم الذاتية وتقوية إمكانات الدعم الطبيعى لديهم(١) .

٣- مدخل الرعاية المؤسسية المغلقة Institutionalization Closed Care :

وهو أحد الأنظمة التى شاع استخدامها فى الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأخرى. وظهرت الحاجة لهذا النظام كنتيجة طبيعية ترتبت على انتهاء (أو انحسار) الوظيفة التقليدية للأسرة فى رعاية أفرادها المسنين وعدم كفايتها – كما سبق أن أوضحنا – فى تحقيق الإشباع الكافى للحاجات الخاصة لهذه الفئات ومن ثم حدث التحول نحو الرعاية المؤسسية ، وعلى الرغم من الآثار السلبية التى ترتبت على تطبيق هذا النظام إلا أن بعض الدراسات تشير إلى أن كلا من النظام الأمريكى والإنجليزى يتجه نحو التوسع فى استخدامه كبديل مناسب لمواجهة حاجات ومشكلات المسنين ، ويغلب على هذا النظام الاتجاه العلاجى والطبى طويل المدى (Medical approach long care) خصوصاً فى الولايات المتحدة الأمريكية(٢) .

وهناك مدخل آخر يعد من أحدث الاتجاهات فى رعاية المسنين ، ويقوم على تهيئة فرص العمل أمام المسنين القادرين فى بعض المشروعات التطوعية ، يشتركون فيها مع غيرهم من المواطنين ، وبالتالى يفيدون بخبراتهم الآخرين مثل مشروعات الخدمة فى المدارس

---

(١) روبرت هوجونوت : "نحو شيخوخة جديدة" مجلة العلم والمجتمع ، العدد (٧٥) ، "الشيخوخة وتطور بحوثها" ، مجلة ربع سنوية تصدر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ، اليونسكو باريس ، يونية / أغسطس ١٩٨٩ ص ٤.

(٢) محروس محمود خليفة : "دراسة عن الوضع الراهن لرعاية المسنين فى المملكة العربية السعودية : البرامج والمؤسسات" ، المنامة البحرين ، الندوة العلمية لرعاية المسنين بالدول العربية الخليجية ، ١٩٨٢ ، ص٦٥.

والمكتبات والمستشفيات ودور الإصلاح ومراكز الرعاية الصحية وخدمات الهاتف ... إلخ[1] ومن الدول التى أخذت بهذا النظام الولايات المتحدة الأمريكية .

هذا بالإضافة – بالطبع – إلى ذلك النوع من الرعاية المجتمعية ، والذى ينتشر فى أغلب المجتمعات المعاصرة والخاص بمعاشات المتقاعدين والتأمين والضمان الاجتماعى .

رابعاً : العوامل المؤثرة في السياسات الوضعية الحالية لرعاية المسنين :

تأثرت السياسات الاجتماعية الوضعية إزاء المسنين بعاملين أساسيين شكلا هذه السياسات ، ونماذج الخدمات والبرامج والخطط التى تمت في إطارها :

١- طبيعة المجتمع الغربي :

لماذا المجتمع الغربي بالذات ؟ الواقع أن الإجابة على هذا السؤال تتمثل في أن السياسات الاجتماعية الحالية لرعاية المسنين السائدة في أغلب المجتمعات هى سياسات غربية، وحتى تلك السياسات التى اعتمدتها المجتمعات النامية ، قد تأثرت بالتجربة الغربية في هذا الصدد إما ناقلة أو مقلدة ، ولسنا هنا -بطبيعة الحال- بصدد تحليل طبيعة المجتمع الغربي واستقصاء ظروفه وأوضاعه وثقافته بشكل تفصيلى فإن ذلك يخرج عن نطاق هذا البحث ، إلا أننا نحاول -وفي عجالة- الإشارة إلى بعض السمات التى تميز الثقافة الغربية والتى تحكم نظرة المجتمع الغربي وتصوره عن الإنسان والحياة والمجتمع ، في محاولة لبيان انعكاسات هذه الثقافة على أوضاع المسنين ومشكلاتهم وعلى سياسات الرعاية الاجتماعية التى تتبناها هذه المجتمعات لرعاية مسنيها أو تلك التى تسير في ركابها وتتأثر بها .

والمتطلع إلى واقع المجتمعات الغربية والمتابع لكتابات الفلاسفة والمفكرين الغربيين يستطيع أن يدرك عناء أن التطور الاقتصادى في الغرب انتهى في القرن الماضى إلى اعتماد النظام الرأسمالى وبلورته ضمن الفلسفة المادية في الوجود ، والفلسفة الحسية في المعرفة والأخلاق والنفعية البراجماتية في التشريع والسلوك ، ولقد تمثلت حصيلة التطورات المادية والفكرية والسياسية خلال هذه الحقبة الزمنية في انهيار تام لأركان المجتمع التقليدي بكل نظمه وأفكاره ومؤسساته ونمو متزايد للفردية Individualizm وانهيار تام للانتماءات الاجتماعية وإيمان بأسبقية الفرد على المجتمع والقيم والقوانين ، واهتزاز لنظم كانت شبه مقدسة كالأسرة والطبقة والطائفية والملكية والدين وغير ذلك ، إضافة إلى الاضطرابات الأخرى التى شملت المجتمع الجديد بوصفها جزءاً لا يتجزء من طبيعتة ومن أهمها الصراعات

---

(١) حامد عبد الهادى : "اتجاهات حديثة فى رعاية المسنين . أوراق الندوة العلمية لرعاية المسنين بالدول العربية الخليجية ، المنامة ، (٢٧-٣٠ نوفمبر ١٩٨٢) ، ص٤٣.

الطبقية التى ولدتها ظروف العمل الصناعي ونظام المصنع والأشكال المختلفة للاستقلال(١). "ويشير بير باسكالون" إلى النمو الليبرالي الاقتصادى الذى تميزت به هذه المجتمعات أدى إلى إفساد الوسط الاجتماعي للإنسان حيث تقوم التنمية الليبرالية على الإقرار بالإنجازات وحرية ممارسة مختلف أشكال الاستقلال الذاتى ، وتؤدى في الأغلب الأعم إلى تمزيق مؤلم للوحدات الاجتماعية التقليدية ، وما يتبع ذلك من اضمحلال النظام العائلى الواسع (الممتد) وزوال النظم الاجتماعية القائمة على العرف ، وإحلال نظم ومؤسسات تقوم على العقد وتكافؤ الفرص ، وبتراخى الروابط العشيرية تتقلص الحقوق المعترف بها للفئات الاجتماعية(٢) .

وهكذا فإن أحادية الاتجاه التى ميزت الحضارة الغربية ، وما حققته من إنجازات في الجوانب المادية للحياة ، كانت له آثاره الواضحة على الحياة الاجتماعية ، ويشير فلاسفة الحضارة الغربية أنفسهم إلى أن الخطر الحقيقي الذى يهدد الإنسان الغربي يكمن في أن قدرته على تشكيل ذاته على المستوى الفردي والجماعي قد تراجعت تراجعاً حاداً خلف قدرته على تشكيل بيئته تشكيلاً مادياً(٣) ، كما أن الدرجة العالية من التحديث والتقدم الصناعي الذى وصلت إليه هذه المجتمعات قد أدى إلى تقليل درجة التكامل الاجتماعي Social Integration وانتشار العديد من الظواهر التى تمس سلامة الحياة الاجتماعية والتى أصبحت تقلق بال الفلاسفة والمفكرين وتزعج صناع القرار في هذه المجتمعات ومن هذه الظواهر :

* تقلص الأسرة الغربية (بناء ووظيفة) بل أنها أصبحت على حد تعبير (بوم وبوم Boum and Boum) تواجه خطر الاختفاء تماماً(٤) .

* ارتفاع معدلات الجريمة وانحراف الأحداث وفشل المؤسسات الاجتماعية في مواجهة هذه المشكلات .

* التركيز على الثراء والنجاح الاقتصادي مع إهمال إنسانية الإنسان وإغفال قيمة العلاقات الإنسانية بين الناس بحيث أصبح الفرد يركز قواه العقلية في خدمة وجوده المادي

---

(١) محمود عودة : "نشأة علم الاجتماع" دراسة في سوسيولوجيا المعرفة ، في دراسات في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، مجموعة من أساتذة علم الاجتماع ، ط ١ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٥ ، ٥١.

(٢) بير باسكالون : "نظرات في هذا الزمان" أو تأملات في النمو ترجمة صلاح الدين برمدا ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٥، ص ٢٢٢.

(٣) محمود حمدى زقزوق : "الحضارة فريضة إسلامية" للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، فبراير / إبريل ١٩٩٢ ، ص ص ٣٢ - ٣٣.

(٤) راشد محمد أبا الخيل : "الشيخوخة ومراكز العناية بالمسنين في العالم" دار الخريف ، الرياض ١٩٩١ ، ص ٣٦ ، ص ٥٦.

الخاص ، وأصبحت الرفاهية المادية وزيادة الدخل ، وثقافة الاستهلاك هي أسمى درجات المثل الأعلى الذى تتحرك نحوه إرادة الإنسان .

* انتشار الاضطرابات النفسية والعصبية كنتيجة طبيعية لفقدان المعنى والهدف الذى يعيش الإنسان من أجله والفراغ الروحى والضياع العقدى وانعدام هداية الوحى .

– والآن ما هى الآثار التى ترتبت على كل هذه المظاهر – التى تشكل طبيعة المجتمع الغربي – على نظرة هذا المجتمع للمسنين وعلى سياسات الرعاية ؟

في هذا الإطار يمكن الإشارة إلى عدد من هذه الآثار:

* إن تمجيد الثقافة الغربية للعمل والإنجاز ، وتقويمها المتعاظم للتنافس والتفوق والنجاح يؤدى إلى تدهور مكانة المسنين في المجتمع .

* من الطبيعي في ظل هذا التوجه أن يهتم المجتمع بشكل أساسي بتوجيه الاستثمارات لخدمة صغار السن والشباب ، وأن يوضع المسنون في قائمة الجماعات (أو الفئات) ذات الأولوية في الاستفادة من البرامج والخدمات .

* إهمال أثر الدين والنواحى الروحية في التوافق الاجتماعي والنفسي للمسن ، وانعدام البعد الروحي في سياسات الرعاية الاجتماعية التي تنتهجها هذه المجتمعات لرعاية مسنيها .

* إن طبيعة العلاقات الاجتماعية في المجتمع الغربي – من الضعف والترهل – بحيث لا تستطيع أن تلزم الأبناء أن يأخذوا على عاتقهم مسئولية ذويهم وأقاربهم من المسنين .

وبالإضافة إلى ما سبق فإن ثمة ظواهر لها أثرها البالغ على وضعية المسنين وسياسات رعايتهم في المجتمعات الغربية نذكر منها :

* صراع الأجيال :

لقد أثبتت العديد من الدراسات التى أجريت في المجتمعات الغربية اتساع المسافة النفسية والاجتماعية بين المسنين وبين الجيال اللاحقة نتيجة لسرعة وشمول التطورات الاجتماعية التى تتعرض لها هذه المجتمعات ، وما يسود اتجاهات الشباب نحو المسنين من رفض غالباً ، الأمر الذى يؤدى إلى نوع من الصراع بين المسنين والفئات العمرية الأخرى يطلق عليه البعض : "الصراع بين جماعة الأكثرية والأقلية"(١) ، وتتمثل هذه الظاهرة في شيوع الاتجاهات السالبة وغير المرغوب فيها بين الشباب نحو المسنين من ناحية ، والسخط الذى يسود الكثيرين من كبار السن نحو جيل الشباب كنتيجة طبيعية لهذه الاتجاهات خاصة،

---

(١) طلعت منصور غبريال : "دراسة في الاتجاهات النفسية نحو المسنين لدى بعض الفئات العمرية في المجتمع الكويتى"، مجلة العلوم الاجتماعية ، الكويت ، ربيع ١٩٨٧ ، ص ٩٧.

وأن كبار السن يبدون اهتماماً بالغاً وحساسية مفرطة حول ما إذا كانوا موضع قبول أو رفض من الشباب والراشدين والمحيطين بهم بصفة عامة .

ويمثل هذا الصراع إحدى المشكلات الهامة التى ينشأ عنها سوء توافق المسنين مع أفراد المجتمع ، كما ينعكس على اتجاهات السياسة الاجتماعية التى تجعل من المسنين مشكلة عبء اقتصادى واجتماعي على المجتمع .

وإذا كان التواصل بين الأجيال قد أفقده التحضر بعض الود وكثيراً من التراحم في بعض المجتمعات الإسلامية ، الأمر الذى أدى بدوره إلى اختلال منظومة العلاقة بين الأجيال وتحول مقاييس الكيف في علاقات الجيرة والأرحام إلى مقاييس الكم والوحدة النقدية(1) ، فإن ذلك لم يحدث إلا نتيجة للتخلى عن القيم الإسلامية التى تعمل على تقريب المسافات بين الأجيال وحلول قيم مستحدثة محلها تقوم على المصلحة المتبادلة والمنفعة المادية خاصة مع موجة الانفتاح التى تسود هذه المجتمعات.

إن الإسلام لا يسمح بما يسمى "بالصراع بين الأجيال" فهو يربى الصغار والشباب على احترام وتوقير كبار السن وإجلالهم ، وأن ما وصل إليه الشباب من علم وخبرة صنع الكثير منه جيل الشيوخ والكبار ، "من علمنى حرفاً صرت له عبداً" قيمة سامية تقوم على الوفاء والاعتراف بالحق وإرجاع الفضل لذويه ، كما أن الشيخوخة مرحلة حتمية يصل إليها كل إنسان ، وتقدير الأجيال اللاحقة للمسنين ورعايتهم هو أمر سيرتد إلى هذه الأجيال : **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾**(2) .

وفي الحديث : "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا"(3) .

إن هذا الحديث الشريف يعكس رؤية الإسلام الفريدة والمتميزة لما ينبغى أن تكون عليه العلاقات بين الأجيال والفئات العمرية المختلفة ، رحمة للصغير وتوقيراً للكبير في تواصل مستمر يعكس الاستمرارية بين مختلف الأجيال .

وتأتي توجيهات الإسلام في هذا الصدد لتأخذ مساراً ذا اتجاهين فيوصى الشباب بالكبار خيراً : ففي الحديث : "ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله من يكرمه عند سنه"، وفي ذات الوقت وعلى نفس المستوى يوصى الكبار بالشباب : "أوصيكم بالشباب

---

(1) صلاح عبد المتعال : "**مستقبل التنمية**" نحو بديل حضاري إسلامي ، دار الشرق الأوسط للنشر ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٩٨.

(2) سورة آل عمران : الآية ١٤٠ .

(3) رواه الترمذى .

خيراً فإنهم أرق أفئدة .." الحديث(1) ، وهكذا فالمسلمون - وفق تعاليم الإسلام - يؤمنون بالتقاء الأجيال وتكاملها ، والكبار منهم (الشيوخ) يفرقون - أو ينبغي لهم أن يفرقوا - بين فريضة تقديم التجربة الكاملة إلى الجيل الجديد وبين ما يوصف بأنه وصاية على الأجيال الصاعدة .

* المسنون ضحايا الجريمة :

فلقد تزايدت معدلات الجرائم التى تقع على المسنين ، وتشير الدراسات إلى تنوع هذه الجرائم كالسرقة والنشل والاحتيال والقتل والإيذاء ، الأمر الذى حدا بالمؤتمر الدولي للمسنين الذى عقد في "فيينا" إلى إصدار التوصية رقم (23) والتى تقول(2) : "إن تزايد حدوث الجريمة ضد كبار السن في بعض البلدان لا يقع ضحية لها أولئك الذين تأثروا بها مباشرة فحسب بل العديد من كبار السن الذين أصبحوا يخشون ترك مساكنهم ، وينبغي توجيه الجهود نحو الهيئات المنفذة للقانون ونحو كبار السن لزيادة وعيهم بمدى الجريمة التى ترتكب ضد كبار السن وآثارهم عليهم" .

إن هذه الظاهرة وانتشارها بهذا الشكل - خاصة وأن ضحاياها هم المسنون وهم الفئة المستضعفة في المجتمع - لا يمكن مواجهتها بالقوانين والأجهزة الأمنية فحسب ، بل تأتى هنا أهمية القيم الدينية والمبادئ الأخلاقية التى تشكل وازعاً داخلياً يكبح جماح الفرد ويضبط سلوكه ، ويمنعه من الانحراف ، الإسلام يقدم الحل الأمثل لمثل هذه الظواهر ، وهو حرب على الجريمة وعلاج لكل انحراف، ومنهجه الواقعي في معالجة هاتين الظاهرتين الاجتماعيتين المرضيتين طريقتان لا ثالث لهما(3) :

* غرس الوازع الدينى وإيقاظ الضمير وذلك بالتربية الخلقية وتهذيب النفوس : "الأسلوب الوقائى" .

* أسلوب الردع والجزاء الذى يقوم عليه النظام الجنائي الإسلامي ، لذلك شرع الله الحدود والقصاص والتعزيرات : "أسلوب علاجي" .

---

(1) إسماعيل العجلونى الجراحى : "كشف الخفاء ومزيل الإلباس" ، أشرف على طبعه وتصحيحه والتعليق عليه : أحمد القلاش ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 3 ، 1983 ، ص 215.

(2) محمد رياض الخانى : دور الطب الوقائى في الجرائم التى ترتكب من المسنين أو عليهم" المجلة العربية للدراسات الأمنية ، العدد (6) ، الرياض ، شوال 1408 ، ص 73.

(3) محمد سلام مدكور : "تحديد المسئولية الجنائية في الشريعة الإسلامية" أبحاث الندوة العلمية لدراسة أثر تطبيق الشريعة في مكافحة الجريمة ، الرياض 1396 ، ص 4.

* انتحار المسنين :

وفي ظل مجتمعات ينظر فيها للشيخوخة على أنها مصدر للتعاسة والشقاء والعزلة وانعدام الفائدة، كان طبيعياً أن تتزايد معدلات انتحار المسنين نتيجة للشعور بعدم التقبل للذات واليأس والقنوط والإحساس بالإهمال ، خاصة وأن قوانين العقوبات في العالم الغربي لا تعتبر الانتحار (Suicide) جريمة ولا تعاقب المنتحر ، وفي هذا الإطار انتشرت في السنوات الأخيرة ما يسمى بظاهرة الموت الرحيم "اليوتانازيا" (Mercy Killing - Euthanasia) عن طريق قطع وسائل الإنعاش عن المسن بناء على رغبته(1)، ولسنا في حاجة إلى التأكيد على العلاقة الوثيقة بين انتشار هذه الظواهر في المجتمعات الغربية وبين الفراغ والخواء الروحي الذى تعانى منه هذه المجتمعات ، والذى يجعل الفرد في حاجة ماسة إلى تفسير مقبول للحياة وفلسفتها يساعده على حل مشاكله المتزايدة والتى ينشأ بعضها بسبب اجتثاث العامل الروحي من تكوينه(2) ، إن الإيمان يمثل بحق "سكينة النفس" ويمثل الدواء الحقيقي من أمراضها وبخاصة تلك الأمراض الناجمة عن الخوف واليأس والقلق ، وما أجمل ما قاله بعضهم حين وصف الإيمان بأنه :

"سند العزائم في الشدائد ، وبلسم الصبر وعماد الرضى والقناعة بالحظوظ ونور الأمل في الصدور ، وسكن النفس إذا أوحشتها الحياة ، وعزاء القلوب إذا نزل الموت أو قربت أيامه" .

٢- العلوم الاجتماعية والسلوكية :

تقوم سياسات الرعاية الاجتماعية ضمن ما تقوم على ما توصلت إليه العلوم الاجتماعية والسلوكية من نتائج ونظريات فيما يتعلق بالإنسان والمجتمع ، ومن هنا فإن نجاح هذه السياسات إنما يتوقف على درجة صدق تلك النتائج وأصالتها في إعطاء تفسير مقبول للسلوك الإنساني والحياة ، ولا شك أن تاريخ هذه العلوم والمدى الذى وصلت إليه لجديرة بأن تضع أيدينا على حقيقة لا يجادل بشأنها إلا مكابر - وهي أن هذه العلوم وإن تكن قد انتشرت اليوم في العالم كله إلا أنها في منشئها - ومن غير إنكار للجهود التي سبقتها

---

(١) محمد رياض الخاني : "دور الطب الوقائي في الجرائم التى ترتكب من المسنين أو عليهم" المجلة العربية للدراسات الأمنية ، مركز الدراسات الأمنية ، العدد (٦) ، الرياض ، شوال ١٤٠٨ ، ص ٧٦.

(٢) مالك بدري : "علم النفس الحديث من منظور إسلامي" بحث مقدم إلى اللقاء العالمي الرابع حول قضايا : المنهجية في العلوم السلوكية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الخرطوم ، (١٥ - ٢٢ يناير ١٩٨٧) ، ص ٢.

وأهمها جهود العلماء المسلمين – عمل أوروبى ، وما زالت قيادتها الفكرية عند الغربيين(١)، وبالتالي فهى تأثرت بطبيعة المجتمع الغربـي ، وتعكس نظرياتها قيم هـذا المجتمع ومفاهيمه ومعتقداته وغاياته ، وتشكل بالتالى على تلك الأسس والغايات الغربية مختلف ألوان السلوك والنشاطات في المؤسسات الاجتماعية .

وفي ضوء هذه الحقيقة يحذر "المختارى" من الركون إلى هذه العلوم وما توصلت إليه من نتائج (كما هى) عند دراسة وتحليل المشكلات الاجتماعية والقضايا الإنسانية في المجتمع الإسلامي ، فيقرر : أن علم الاجتماع كما يدرس حالياً في الغـرب ومـن حيث هو نموذج مرجعى لباقى التحاليل الأخرى ، بالرغم من قيمته التحليلية والإجرائية لا يمكن اعتماده أو الركون إليه نموذجاً علمياً لتحليل وتشريح مشاكل الأمة لأنه وليد أمور اجتماعية مختلفة من حيث العقيدة والهدف والمثال والنماذج التى يريد بناءها(٢) ، ويشخص "رجب" أزمة هذه العلوم وقصورها عن فهم الإنسان والمجتمع ، حين يقرر "أن ذلك إنما يرجع إلى"(٣) :

* أن هـذه العلوم استبعدت تماماً كل ما يخضع للملاحظة من نطاق الدراسة وأخرجت الجوانب الروحية المتعلقة بصلة الإنسان بربه من نطاق الدراسة العلمية فأهملت بذلك قطاعاً كاملاً من العوامل الحاكمة على السلوك البشري والتنظيم الاجتماعي .

* أنها استبعدت الديـن والوحى كمصادر للوصول إلى المعرفة العلمية الصحيحة نتيجة لما شاب الديانات السائدة في الغرب فيما يتصل بنظرتها للعلم وفي تعاملها مع رجاله فأضاعت بذلك كل أمل في الهداية المستمدة من الوحى الصحيح في دين الإسلام .

* أنها زعمت لنفسها حياداً قيمياً لم تلتزم به في الواقع فاتحة المجال لاعتبار قيم الثقافة بمثابة المعيار الذى يقاس إليه كل تقييم إنساني أو متجهة إلى نسبية قيمية أضاعت كل تقييم .

ويؤكد "رايمونـدس" عالم الاجتماع الأمريكى المعاصر على هذا القصور الذى شاب هذه العلوم حين يقول(٤) :

---

(١) جعفر شيخ إدريس : "إسلامية العلوم وموضوعيتها" ، مجلة المسلم المعاصر ، تصدرها مؤسسة المسلم المعاصر ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، العدد (٥٠) ، ديسمبر / فبراير ١٩٨٧ / ١٩٨٨م ، ص ٨.

(٢) أحمد المختارى : "نحو علم اجتماع الإسلامي" ، مجلة المسلم المعاصر ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، العدد(٤٣) ، السنة (١١) ، ١٤٠٥ ، ص ٤٨.

(٣) إبراهيم عبد الرحمن رجب : "المنهج العلمى للبحث من وجهة نظر إسلامية في نطاق العلوم الاجتماعية ومهن المساعدة الإنسانية"، بحث مقدم إلى ندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة ، (١٠ – ١٣ أغسطس ١٩٩١) ، ص ٣١.

(٤) نبيل السمالوطى : "الايدولوجيا وأزمة علم الاجتماع" ، دار الكتاب الجامعى ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ ، ص ٤٣.

"إن العلوم الاجتماعية الموضوعية لم تعد تكفي الإنسان المعاصر لأنه يسعى إلى حلول لمشكلاته المادية والنفسية والاجتماعية ، ويسعى دائماً وراء توجيهات تخلصه من محنته الدنيوية فهو في حاجة إلى استجلاء معنى الحياة والوجود الإنساني" .

ولقد كان طبيعياً – في ضوء ذلك كله – أن تتعالى صيحات العلماء والمفكرين في المجتمعات الإسلامية لتنادى بضرورة وأهمية توجيه هذه العلوم توجيهاً إسلامياً ، خاصة وأن هذه العلوم بوضعها الحالي – تتضمن في أصولها المنهجية وتصوراتها الفلسفية التى تستند إليها عداءً ظاهراً أو خفياً للتصور الدينى جملة والتصور الإسلامي على وجه الخصوص ، كما أننا لدينا بحمد الله – التعاليم الإلهية الصحيحة التى تشكل خميرة هذه العلوم الإنسانية وأدواتها والكثير من وسائلها وتبصر بوظائفها .

فإذا كانت الثقافة الغربية تضع حدود المعرفة في إطار الفهم الجزئي للوجود ، فإن الثقافة الإسلامية تجتاز حدود المعرفة في إطار الفهم الكلي للوجود ، فالإسلام يحيط بفهم كليات الحياة وذلك بسبب أنه يفسرها تفسيراً شاملاً للأبعاد النهائية كالموت والولادة ويعتمد في ذلك على اختيارات وجدانية بالحدس(1).

خامساً : جوانب القصور في السياسات الوضعية وفق الرؤية الإسلامية :

بعد العرض السابق للسياق الاجتماعي والثقافي والعلمي الذى نشأت في إطاره وتأثرت به السياسات الوضعية إزاء المسنين في المجتمعات الغربية ، والتى تعتبر معظم السياسات والبرامج الموجهة نحو رعاية المسنين في المجتمعات الإسلامية ، نعرض فيما يلى لأهم أوجه القصور في هذه السياسات والتى أثرت إلى حد كبير على درجة فعاليتها في مواجهة مشكلة المسنين وذلك في ضوء التصور الإسلامي :

١– بين التجانس والاختلاف :

قامت هذه السياسات على أساس النظر إلى كبار السن على أنهم يمثلون جماعة أو فئة واحدة متجانسة بشكل عام ، ولذلك فإن صناع السياسات والمهتمين بوضع الخطط والبرامج التطبيقية كانوا يحرصون على أن يضعوا نصب أعينهم هذا التجانس المفترض بين هؤلاء الناس عند التخطيط من أجلهم(2) ، ولكن الحقيقة أن المسنين لا يمثلون فئة عمرية واحدة ، ولا يمثلون تجانساً في تركيب وبناء الفئة العمرية بل على العكس من ذلك تتضمن

---

(١) ليوبولد فايس : (محمد أسد) : "الإسلام على مفترق الطرق" ، ترجمة عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٤، ص ٣٥ – ٣٤.

(٢) إبراهيم خليفة – عبد الله الشمرى : "الاستفادة من القدرات الكامنة لدى المسنين لرعاية الطفولة في الوطن العربي" ، مجلة المستقبل العربي ، العدد (٦٧) سبتمبر ١٩٨٤ ، ص ٥٦ .

تبايناً واختلافاً في نمط المسن وتاريخه الاجتماعي ونوع صلته بالله - عز وجل - فضلاً عن الاختلافات الأخرى المرتبطة بالحالة الصحية ، الخلفية ، الثقافية ، الوضع الأسرى ، القيم ، الجنس .. إلخ ، مما يعنى صعوبة وضع برامج ذات صفة عامة (Universal Programmes) عند التخطيط لرعاية المسنين .

ومن ثم فإن هذه الفروق والاختلافات التى أثبتتها نتائج البحوث الاجتماعية ، وهذا "اللاتجانس" بين المسنين ، إنما يترتب عليه عدة أمور فيما يتعلق بالسياسات الاجتماعية لرعاية المسنين نشير إليها فيما يلى :

أنه لا يمكن لصانعى السياسات الاجتماعية وواضعى البرامج أن يتغاضوا عن هذه الفروق والاختلافات ، وإلا جاءت هذه السياسات والبرامج مخالفة للواقع وبالتالي مفتقدة لأهم مقومات نجاحها وفعاليتها وهو "الواقعية" .

* أن "اللاتجانس" يعطى المخططين مجالاً أوسع للعمل مع أفراد وجماعات هذه الفئة العمرية بحسب إمكاناتهم وظروفهم وانتماءاتهم ، وبحسب احتياجات المجتمعات المحلية ، والجوارات السكنية التى يقطنونها ، لا في مجال رعاية المسنين فحسب وإنما في مختلف مجالات الرعاية الاجتماعية .

* أنه وعلى المستوى التطبيقي فإن الممارسة المهنية وبرامج التدخل المهني لمواجهة مشكلات المسنين في محيط الخدمة الاجتماعية ينبغى أن تضع في اعتبارها هذه السمة "اللاتجانس" ويؤكد (مير وما كلويد) على هذه الحقيقة بقولهما : "إن النسق القيمي للخدمة الاجتماعية يقوم ضمن ما يقوم على الاعتقاد بفردية كل إنسان وبأنه من المتعذر تصنيف الناس في قوالب جامدة بناء على معيار واحد أو أكثر"(١) .

* أن هذه الاختلافات إنما تبرز أهمية المدخل الأسرى لرعاية المسنين ، ذلك لأن الخصوصية المتميزة لكل حالة من حالات المسنين إنما تلقى عبئاً ضخماً على سياسات وبرامج الخدمات العامة ، ومن ثم يمكن للأسرة أن تسهم بفاعلية أكثر في رعاية أفراد هذه الفئة في بيئاتهم الطبيعية وبدون عزلهم عن الحياة الاجتماعية في المجتمع متى توافرت الظروف الملائمة لذلك ، ومن هنا فإن الإسلام حين يؤكد على رعاية المسنين في محيط الأسرة ويعطى لها الأولوية المطلقة فإنه يقدم علاجاً شافياً لهذه الإشكالية التى لا يمكن لصانعى السياسة الاجتماعية أن يتهربوا منها ، ليبقى بعد ذلك أولئك الذين لا أسر لهم أو الذين يحتاجون إلى رعاية من نوع خاص .

---

(1) Danna L . Maceod & Henry J. Meyer ; " A Study of the Values of Social Workers in Ewin J . Thomas , (eds) , " Behavioral Social for Science Workers " n , j ,; hte free press , 1967 , p . 405.

* أنه وعلى الرغم من أن النظرة التخطيطية لبرامج رعاية المسنين لا يمكن أن تتهرب من إيجاد تصنيف مقبول يسمح بالتعامل مع المسنين كفئات وليس كأفراد ، إلا أن ذلك لا ينبغي أن يعني بحال وضع جميع المسنين في (سلة واحدة) والتعامل معهم بنوع من التعميم (التعسفي) ، بل يعني ضرورة إيجاد معايير للتصنيف المقبول التي يمكن تصميم برامج رعاية المسنين في ضوئها دون تعسف ، وفي هذا الصدد يمكن اقتراح مجموعة من المعايير للتمييز بين الفئات المختلفة للمسنين لأغراض صنع السياسات وتخطيط البرامج .

٢- بين العجز والقدرة :

وترتبط هذه النقطة بما سبقها ، إذ أن الاعتقاد بتجانس المسنين كان قوامه النظر إليهم على أنهم من الفئات المعتمدة على الآخرين وأنهم فاقدون للقدرة والقوة ، وأن كبر السن ما هو إلا حالة من العجز الجسمي والعقلي والنفسي ، والواقع أن هذه النظرة إنما ترجع إلى عدة عوامل لعل أهمها :

* ذلك الاتجاه الذي يقسم الحياة إلى مراحل متعاقبة تتميز كل منها بسمات معينة كما لو هناك انقطاع وانفصال بين كل مرحلة وأخرى ، في حين أن حياة الإنسان ما هي إلا مسيرة متكاملة ووحدة متصلة لا انفصال بينها .

* النظر إلى الشيخوخة في ذاتها على أنها أحد الأمراض أو أنها حالة "باثولوجية" .

* أن الدراسات المختبرية أثبتت أن أداء المسنين أقل أداء من صغار السن ، إلا أن "كرندال" يؤكد على أنه "يجب علينا في هذا الصدد أن نلاحظ عن حق أن فروق الأداء ليست كبيرة" ، ويقول أيضاً "نشك أن تكون هذه الفروق ذات أهمية في معظم حالات الحياة اليومية[١].

* ارتباط الشيخوخة تاريخياً وتراثياً بسن الإحالة إلى التقاعد حيث ينتقل الإنسان في سن معينة إلى حالة من البطالة الاجتماعية وما يتبعها من الكسل والعجز والوهن .

وفي ضوء هذه النظرة وجدنا من يشير إلى أن كبار السن سيعتبرون الفئة من البسكان ذات العقول المصابة الخربة[٢] ، وذيوع الاعتقاد بأن مشكلة المسنين تكمن أساساً في ضعفهم الجسماني وانهيار قواهم البدنية ، ولقد ترتب على ذلك عدة نتائج لعل أهمها :

* أن السياسات الوضعية قد قامت على أساس هذه النظرة السلبية للمسنين ، كيف أنهم يحتاجون دائماً (وعلى وجه العموم) إلى الرعاية تقدمها لهم ويتضح ذلك من مراجعة نماذج الخدمات والبرامج المقدمة للمسنين والتي قامت على هدى هذه السياسات .

(١) راشد محمد أبا الخيل : "الشيخوخة ومراكز العناية بالمسنين في العالم" ، دار الخريف ، الرياض ١٩٩١ ، ص ٤٥ .

(٢) إبراهيم خليفة – عبد الله الشمري : "الاستفادة من القدرات الكامنة لدى المسنين لرعاية الطفولة في الوطن العربي"، مجلة المستقبل العربي ، العدد (٦٧) سبتمبر ١٩٨٤ ، ص ٥٦ .

* أن هذه السياسات والبرامج قد أعطت جل اهتمامها للمشكلات والآثار الصحية المترتبة على الكبر، والرعاية الطبية طويلة المدى وأغفلت الجوانب الأخرى .

* أن سياسات وبرامج الرعاية المستندة إلى هذا التصور تغفل عنصراً هاماً يتمثل في وضع الخطط والبرامج التى تكفل إفساح المجال أمام المسنين للاستفادة منهم كطاقة إنتاجية في المجتمع .

* أن لهذه النظرة انعكاساتها السلبية على الفكرة التى يكونها الإنسان عن مرحلة التقدم في العمر ونظرته لها على أنها مرحلة العجز واليأس والقنوط وأنها مصدر للتعاسة والشقاء والانزواء عن الحياة .

* أن النظر إلى المسنين على أنهم بحاجة إلى العطف والشفقة نتيجة عجزهم يترتب عليه تدهور منظومة المكانة الاجتماعية لهذه الفئة في المجتمع .

أن هذه النظرة السلبية للمسنين تحتاج إلى مراجعة في ضوء تعاليم الإسلام التى ترفض الربط بين السن والعجز، وبالتالى ترفض الربط بين السن وبين القدرة على العطاء، فالإنسان في التصور الإسلامي مكلف بالعمل والعطاء لا إلى أن يبلغ سناً معينة وإنما إلى آخر لحظة من لحظات حياته ما دام ذلك ممكناً، والقرآن لم يربط النبوة بالعمر، وعرض نماذج النبوة في نسق ممتد، وذكر أنبياء تقدمت بهم السن وطالت بهم الدعوة إلى الله "كإبراهيم وزكريا ونوح" على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، ومن ناحية أخرى فإن مشاهد السيرة النبوية تدلنا على أن المجاهدين الأوائل لم يكن يمنعهم من الخروج إلى الجهاد بلوغهم مرحلة الكهولة أو الشيخوخة، إذ إن الجهاد في سبيل الله يظل فريضة ما دام الإنسان قادراً، فالقدرة لا ترتبط إطلاقاً بالسن حيث أن الضعفاء هم أصحاب الوهن في أى عمر[1] .

فالتقدم في العمر إذاً لا يعنى "العجز" ولا يعنى التوقف عن العطاء في منظور الإسلام، وهو بهذا يفتح الباب أمام المسنين للمشاركة الإيجابية الفعالة في الحياة العامة ما داموا قادرين. على ذلك، ينظر إلى هذه المشاركة على أنها تكليف للمسلم لا يسقط ببلوغه حداً معيناً من السن وإنما يسقط فقط عند عدم الاستطاعة والقدرة على الوفاء به وفي هذه الحالة فإن الإسلام يوفر له الرعاية الواجبة حيث يكون .

٣- بين الجزئية والشمول :

تعتمد السياسات الحالية على النظرة الجزئية التى تفتقر إلى الشمول والتوازن وضبط النسب عند تعاملها مع المسنين نتيجة "للتجانس" المفترض بينهم من ناحية، ونتيجة للرؤية القاصرة لمشكلاتهم من ناحية أخرى، ولذلك كان من الطبيعي أن تركز هذه السياسات والبرامج على جوانب معينة من مشكلة المسنين وتغفل جوانب أخرى بسبب النظرة الأحادية

---

(١) صلاح عبد المتعال : "مستقبل التنمية" نحو بديل حضاري إسلامي، دار الشرق الأوسط للنشر، القاهرة ١٩٩١.

الضيقة التى تتوهم أنها اكتشفت الحقيقة المطلقة كلها ، وفي هـذا الصـدد نجـد التركيز على البرامج الصحية والخدمات الطبية ، أو التركيز على الجوانب الاقتصادية وتأمين الدخل ، دون النظر إلى المسنين من منطلـق شمـولي ، والواقـع أن قضايا المسنين - كمـا تؤكـد الدراسـات العلمية - ليست قاصرة على هذا الجانب أو ذاك وإنما هى قضايا متعددة ومتنوعـة ، وبالتـالى تتعدد الاهتمامـات والتخصصـات التى تتناولهـا فهنـاك الجـانب الصحـي ،والاقتصـادي ، والاجتماعي ، والتعليمي ، والترويحي ، والروحـي ، والعلمـي ... إلخ . والتصـور الإسـلامي يرفض عقلية التبعيض والتفكيـك والنظرات الجزئيـة ، ويعتمـد علـى التفكـير الشـامل الـذى يتناول الظاهرة من جميع جوانبها ويتحري جميـع أجزائهـا ومـا يتعلـق بهـا ، ومـن ثـم يوجـه الجهود بشكل متوازن إلى جميع هذه الجوانب ، في رعاية شاملة متكاملة.

٤- بين التقاعد الإجباري والعمل المستمر :

تقوم السياسات الوضعيـة علـى افـتراض أساسـي مـؤداه : أن مجـرد الإحالـة للتقـاعد تصيب الإنسان بالأمراض الجسمية والعقلية ، وتدفعه إلى الانطواء والانزواء عن الحياة العامة، وأن اعتزال الخدمة له آثاره العقلية والجسمية الضارة بالنسبة للمسـن ، ويرتبـط هـذا التصـور بطبيعة المجتمع الغربي الذى يمجد القوة والشباب ويقدس العمل والإنجاز ، ولكـن الحقيقـة أن التقاعد - في حد ذاته - ليس هو المسئول أو السبب المباشر لتلك الأعراض الجسمية والعقلية أو حتى الاجتماعية ، وإنما المسئول عن ذلك - ما أشارت الدراسـات والبحـوث العلميـة - "هو بقاء المتقاعد واسـتمراره في حالـة مـن الركـود دون تشـغيل طاقاتـه واسـتثمار إمكاناتـه كعنصر قادر علـى العطـاء ، الأمـر الـذى يؤكـد الحاجـة إلى سياسـات عامـة تنمـى قـدرات المتقاعدين وتستثمرها في مصالحهم وصالح مجتمعهـم"(١) ، وفي هـذا الصـدد يصبـح الإنفـاق على المسنين هو استثمار دائم له عائده المجزى علـى المسـن وعلـى المجتمـع في نفـس الوقـت ، ولقد أوصت خطة العمل الدولية التـى وضعتهـا الأمـم المتحـدة في عـام ١٩٨٢م بعـدم سـن القوانين التى تحرم أو تستبعد القيام بأعمال إضافية بعد التقاعد ، واقترحـت أن تتخـذ التدابـير اللازمة لمساعدة المتقاعدين والمسنين على القيام بأعمال جزئية(٢) .

وإذا نظرنا إلى الإسلام نجد أنه لا يعترف "بالتقاعد الإجبـاري" ومـا ترتـب عليـه مـن حرمان الإنسان من حق أساسي كفله الإسلام وأوجب على ولاة الأمور تهيئة المنـاخ الملائـم

---

(١) إبراهيم خليفة - عبد الله الشمرى : "الاستفادة من القدرات الكامنة لدى المسنين لرعاية الطفولة في الوطن العربي" ، مجلة المستقبل العربي ، العدد (٦٧) سبتمبر ١٩٨٤ ، ص ٦٠ .

(٢) إبراهيم خليفة - عبد الله الشمرى : "الاستفادة من القدرات الكامنة لدى المسنين لرعاية الطفولة في الوطن العربي" ، مجلة المستقبل العربي ، العدد (٦٧) سبتمبر ١٩٨٤ ، ص ٥٠ .

له ليمارس من خلاله هذا الحق ، وإذا كانت الظروف والمستجدات قد دفعت الدول والحكومات إلى سن القوانين التى تحدد سنا معينة لاعتزال العمل الرسمي (الوظيفة) لإتاحةالفرص للشباب والأجيال الصاعدة لأداء دورها في خدمةالمجتمع ، فإن هذا لا يعنى - أوينبغي أن لا يعنى - حكماً على الإنسان بالتحول إلى نوع من البطالة والعجز والكسل والخمول والاعتماد على الآخرين ، ومن هنا فإن الرؤية الإسلامية لا تعترف بتلك المقولة التى تربط التقاعد والإصابة بالأمراض العقلية والجسمية لسبب بسيط وهو أن مفهوم العمل في الإسلام لا يقتصرعلىذلك النوع من العمل الذى يخضع صاحبه للتشريعات المنظمة للتقاعد ، أعنى العمل الرسمي أو "الوظيفة الرسمية" كما هو الحال في المفهوم الوضعي ، إذ إن آفاق العمل مفتوحة أمام المسلم للدين والدنيا ، وليس لقوة أن تقف في طريقه أو تمنعه عن العمل ما دام قادراً عليه وراغباً فيه ، بل وربما ينظر المسلم إلى التقاعد عن العمل الرسمى أواعتزال الخدمة على أنه متغير إيجابي في حياته يحرره من قيود الوظيفة ويطلق لطاقاته وقدراته العنان في أعمال تعود بالنفع عليه وعلى أسرته ومجتمعه وأمته ودينه ، إن الإسلام يرى أن مهمة الإنسان في الحياة الدنيا هى خلافة الله في الأرض : ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ..**﴾[1] ، وأن دوره في أداء هذه المهمة وغايته منها هو عبادة الله -عز وجل- : ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[2] .

ومفهوم العبادة في الإسلام يتسع حتى أنه يشمل جميع الأعمال والأنشطة والمشاعر وحتى الرغبات التى يطلق لها العنان في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله .

ومن هنا فالعمل جزء من العبادة في تصور الإسلام ويرتبط العمل في القرآن الكريم بالإيمان ويرتبط بقيمة أخرى هى إتقان العمل واستمراريته حتى"ولو قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها" ، كما جاء في الحديث الشريف[3].

وفي ضوء ذلك ينبغى أن تقوم السياسات الاجتماعية لرعاية المسنين وفق الرؤية الإسلامية على أساس النظر إلى كبار السن باعتبارهم طاقة منتجة لا مجرد عالة على المجتمع ، والوضع يؤكد ذلك فإننا نرى القادة والحكام والسياسيين والعلماء على مستوى كثير من المجتمعات هم من كبار السن الذين تؤازرهم الحكمة والخبرة والحنكة التى اكتسبوها على مر السنين .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٣) رواه أحمد .

كذلك فإن مبدأ الشورى في الإسلام يتيح الفرصة أمام كبار السن ليشعروا بقيمتهم وكيانهم في خدمة مجتمعهم في شتى مجالات الحياة بإسداء النصح والمشورة ، وتقديم الآراء والخبرات التى ترتبط بمجالات تخصصهم ، قال تعالى في سمات المؤمنين : ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾(١)، وقال : ﴿**وشاورهم في الأمر ..**﴾(٢) .

إن كبار السن لهم أهميتهم الخاصة عند تطبيق هذا المبدأ في حياة المجتمع المسلم ، ويحتوى تاريخ الإسلام على العديد من المواقف التى رجع فيها أولو الأمر إلى الشيوخ وكبار السن للاستفادة بآرائهم في إدارة دفة الأمور أو إيجاد الحلول لما يواجههم من مشكلات .

٥- بين الحاجات المادية والأشواق الروحية :

سبق أن أشرنا إلى أن سياسات وبرامج رعاية المسنين تقوم على النظرة الآلية المادية للإنسان مع إغفال الأبعاد الروحية ، سواء في تفسير سلوك الإنسان في هذه المرحلة العمرية والمشكلات التى يتعرض لها ، أو في الجهود والبرامج التى توجه لرعاية المسنين ومواجهة مشكلاتهم ، وقد ترتب على ذلك الاهتمام بإشباع الحاجات المادية – باعتبارها هى الأساس – مع إغفال الاحتياجات والأشواق الروحية إلا نادراً .

ويود الباحث هنا أن يشير إلى أنه لا يميل إلى التقليل من قيمة وأهمية الحاجات المادية لكبار السن ، وإنما يود التأكيد على خطورة إغفال الجوانب الروحية وإشباع الحاجات والأشواق الروحية للإنسان وما يترتب على ذلك من آثار ونتائج لا تفلح الجهود والخدمات المادية في مواجهتها أو تلافيها .

ويشير "إبراهيم رجب" إلى أن إغفال سياسات الرعاية الاجتماعية للأبعاد الروحية نشأ عنه عدم اكتراث بقيمة العلاقات الاجتماعية الطبيعية بين الناس وجرأة شديدة على تقطيع أوصال العلاقات الإنسانية بشكل مصطنع عند تصميم برامج الرعاية الاجتماعية(٣) ، ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك انتشار مؤسسات رعاية المسنين ، وما يترتب على إيداع المسن من آثار نفسية واجتماعية كما سيتضح .

والتصور الإسلامي للإنسان يقضي بأن توجه الجهود في توازن وشمول لكافة جوانب الإنسان، كما أن أى جهد يخلو من إرضاء الجانب الروحى في الإنسان لا يخلف وراءه إلا الإحساس بعدم الرضا رغم كل مظاهر التقدم المادي التى يمكن تحقيقها .

---

(١) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٣) إبراهيم عبد الرحمن رجب : "التوجيه الإسلامي للخدمة الاجتماعية" بحث مقدم إلى مؤتمر التوجيه الإسلامي للعلوم ، جامعة الأزهر، القاهرة ، (٢٤ – ٢٩ أكتوبر ١٩٩٢) ، ص ٥٧.

إن التصور الإسلامي لرعاية المسنين يقوم على أن الجانب الروحى هو الأساس وهو المحور الذى ينبغى أن تدور حوله كافة أشكال الرعاية الأخرى اقتصادية كانت أو اجتماعية أو وطنية أو نفسية .. إلخ.

ودليلنا على ذلك ما جاء في الحديث الشريف : "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهى القلب" ، فمن صلح قلبه صلح جسده قطعاً بخلاف العكس[1] ، ولذلك تقرر الشريعة الإسلامية – كما أبان علماء الأصول – أن جميع المصالح الإنسانية في هذه الحياة تتجمع في كليات خمس مرتبة في سلم يبدأ بالأهم فما دونه وهى الدين ، الحياة ، العقل ، النسل ، المال ، وإن تحقيق كل مصلحة يندرج في ثلاث مراحل تبدأ بالأهم فما دونه أيضاً وهي: الضروريات ، الحاجات ، والتحسينات .

إن النزعة الروحية عند الإنسان وشعوره النفسي والوجداني لايمكن تلبيته أو إشباعه إلا من خلال الدين ، لأن العقيدة الدينية هى التى تصل الإنسان بخالقه جل وعلا وتضعه مع صفاته العليا أمام عتبة اليقين والاطمئنان والرضا وتطلق أشواقه الروحية ، قال تعالى :

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[2] .

وإذا كان الإنسان في كل مراحل حياته في حاجة ماسة إلى الإشباع الروحي المتوافق مع تكوينه الفطرى لتحقيق السعادة والسكينة والطمأنينة التى ينشدها فإنه يكون أشد حاجة إلى ذلك في مرحلة الكبر .

٦ – بين العزلة والاندماج :

تعرف العزلة (Segregation) بأنها "تلك الحالة النفسية الناتجة عن فقدان الفرد لنظام المساندة مع تناقص المشاركة في النشاطات الاجتماعية ، وقله الشعور بالإنجاز الاجتماعي"[3] ، وهى بهذا المعنى أصبحت من المشكلات التى يعانى منها المسنون في المجتمعات الغربية نتيجة للعديد من العوامل التى يشير "فيلد" إلى بعضها بقوله "ما أقل إدراكنا للضغوط الاجتماعية التى طالما تحملها المسن مثل تضييق دائرة العلاقات الاجتماعية للفرد ، وانتقال رفقاء عمره نتيجة المرض أو الوفاة ، فليس من اليسير على الشخص المسن تكوين صداقات جديدة والنتيجة هى انفصال المسنين التام عن عالم العمل وشعورهم بأنه لا فائدة

---

(١) ابن تيمية : "الإيمان" ، تحقيق ومراجعة هاشم محمد الشاذلى ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٦ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

(٣) راشد محمد أبا الخيل : "الشيخوخة ومراكز العناية بالمسنين في العالم" دار الخريف ، الرياض ، ١٩٩١ ، ص ٦٠ .

ترتجى منهم وإحساسهم بالوحدة (Lonelines) والعزلة ولا حيلة لهم للقضاء على ملل فراغ الأيام الطويلة"(١) .

ومهما تكن الأسباب فإن بعد الشخص المسن عن أسرته ومجتمعه ومحيطه الاجتماعي الذى عاش فيه وارتبط به وألفه سنوات طوال يمكن أن يتركه وحيداً ومكتئباً وهى حالة تزيد من أو حتى تسبب الكثير من المشاكل النفسية والبدنية فضلاً عن مضاعفاتها بالنسبة للفرد والمجتمع .

ولقد لوحظ أن معظم السياسات التى سارت عليها الدول المتقدمة قد باعدت بين المسنين وبين الحياة المجتمعية ، الأمر الذى ترتب عليه عزلة المسنين عن تيار الحياة المجتمعية ونسيجها ، كنتيجة طبيعية لأوجه القصور التى يمكن رصدها سواء في الفصل بين سياسات رعاية المسنين وبين غيرها من سياسات الرعاية الاجتماعية للفئات الأخرى أو في طبيعة البرامج والمشروعات والتى نشأت في إطار هذه السياسات ، وفي الصدد يمكن أن نشير إلى الملاحظات التالية(٢) :

* غياب التكامل بين سياسات رعاية المسنين وسياسات الرعاية الاجتماعية بشكل عام ، حيث يتم وضع الخطط والسياسات الخاصة برعاية المسنين منفصلة عن الخطط القومية وسياسات الرعاية الاجتماعية .

* التركيز على المؤسسات الاجتماعية الإيوائية لرعاية المسنين وما نتج عنه من عزلهم بعيداً عن الحياة العادية لأسرهم وللفئات العمرية الأخرى في المجتمع .

* أن سياسات التنمية وخططها اعتبرت المسنين بعيدة كل البعد عن إمكانية المشاركة الجادة والفعالة في العمل الإنتاجي ووضعهم في فئات المتقاعدين .

وفيما يتعلق بالنقطة الأولى فإن من الخطأ وضع سياسات رعاية المسنين في غياب الارتباط والتكامل بين هذه السياسات وبين الخطط القومية وسياسات الرعاية الاجتماعية بشكل عام ، وأن كل سياسة تهتم بالمسنين ينبغى أن يكون ضمن السياسة القومية العامة سواء منها السياسة الاقتصادية أو سياسة التنمية الاجتماعية عدا ما يمكن أن يتصل بصفات وخصائص ومشكلات المسنين أنفسهم ، وبالتالى المشروعات والبرامج التى تضعها الحكومات لجميع الفئات من جميع الأعمار ينبغى أن تشمل المسنين كذلك وكل الوسائل

---

(١) راشد محمد أبا الخيل : "الشيخوخة ومراكز العناية بالمسنين في العالم" دار الخريف ، الرياض ، ١٩٩١ ، ص ٦١ .

(٢) على فؤاد أحمد : "العمل الاجتماعي مع المسنين" في : عزت سيد إسماعيل ، دراسات نفسية اجتماعية ، دار القلم، الكويت ، ١٩٨٤، ص ٨٥ .

والأساليب التى من شأنها أن تدعم الأسرة لابد وأن تراعى مشاكل واحتياجات كبار السن فيها[1] .

وهذا يعنى أن كل السياسات والبرامج الموجهة نحو مجالات رعاية الأسرة ، والطفولة والشباب، والسياسات التعليمية ، والصحية ، الإعلامية ، وسياسات الإسكان ، وتنمية المجتمع المحلي... إلخ ، ينبغى أن تضع في اعتبارها ظروف ومواقف وقضايا المسنين في المجتمع.

والرؤية الإسلامية تقوم - كما سبق وأشرنا - على تحقيق هذا التكامل والشمول بين هذه المجالات المختلفة .

المؤسسات الإيوائية :

وفيما يتعلق بالملاحظة الثانية والمتعلقة بالرعاية المؤسسية الإيوائية وما ترتب عليها من عزل المسنين عن الحياة في المجتمع ، فلقد سبقت الإشارة إلى أن هذا اللون من الرعاية يعد واحداً من أنظمة الرعاية المغلقة ، والواقع أن هذا النمط يرتبط إلى حد كبير بطبيعة الحياة الاجتماعية في المجتمع الغربي ، وتدهور (أو تقلص) الوظائف التقليدية للأسرة . ومن السهل علينا أن نتبين النتائج السلبية التى ترتبت على التركيز على هذا المدخل في رعاية المسنين لعل من أهمها :

* عزل المسنين عن أسرهم وعن الحياة العامة في المجتمع .
* ضعف مكانتهم الاجتماعية في المجتمع .
* الإخلال بالتماسك بين الفئات العصرية لأفراد المجتمع بشكل عام .
* زيادة مشاعر الاعتماد (Dependncy) والسلبية والتواكل والكسل لدى النزلاء .
* فضلاً عن أشكال المعاناة النفسية والاجتماعية التى تصاحب حياة "النزيل" في هذه المؤسسات .

ويشير "فيلد" إلى هذه الآثار السلبية للرعاية المؤسسية بقوله : "قد يقع المسنون لسوء الحظ في دائرة الإهمال ، والوحدة والاكتئاب مالم تتحقق احتياجاتهم العاطفية ، فعندما يدركون أنهم قد أصبحوا عبئاً على المجتمع فإنهم يشعرون دائماً بعدم فائدتهم وأنهم ليسوا محبوبين ، وبالتالى يصابون بالملل وخيبة الأمل في الحياة مما يفاقم إحساسهم بالوحدة والاكتئاب ، ويمكن تخطيط هذه الدائرة بأسلوب التفاعل الاجتماعي إلا أن الدائرة تسوء بدخول المسنين إلى المؤسسات الاجتماعية"[2] .

---

(١) حامد عبد الهادى : "اتجاهات حديثة في رعاية المسنين" ، وأوراق الندوة العلمية لرعاية المسنين بالدول العربية الخليجية ، المنامة (٢٧ - ٣٠ نوفمبر ١٩٨٢) ، ص ٢٥ .

(٢) راشد محمد أبا الخيل : "الشيخوخة ومراكز العناية بالمسنين في العالم" دار الخريف ، الرياض ، ١٩٩١ ، ص ٥١ .

ولقد أثبت الدراسات الميدانية أن مسنى الرعاية الاجتماعية بالمؤسسات الإيوائيـة هـم أكثر معاناة للأمراض الجسمية والنفسية من غيرهم(١) ، كما تشير دراسات "ماسون" أن اتجاهات المسنين النزلاء في مؤسسات أو دور خاصة بهم نحو أنفسهم تضمنت مشاعر سلبية عن الذات أكثر من غيرهم(٢) .

ولا يتوقف الأمر على المسنين أنفسهم بل يتعداهم إلى الشباب الذين يرفضون فكرة وجود هذه المؤسسات في مجتمعنا الإسلامي ، ففي دراسة عن نظرة الشباب للمسنين(٣) يرى الشباب أن وجود المسن بين أفراد أسرته يمكن أن يساعده على حل بعض مشاكله ومن ثم لا يؤيدون فكرة المؤسسات الخاصة بالمسنين .

أن ما سبق على أهميته لا يعنى أن المؤسسات هى شر محض ، إذ إن هناك حالات خاصة وظروف خاصة معينة تحتم وجود هذا اللون من الرعاية ، وإنما نريد – وانطلاقاً من رؤيتنا الإسلامية – أن نؤكد على أنه ينبغى النظر إلى هذه المؤسسات على أنها الملاذ الأخير، وأن تحتل درجة متأخرة في سلم أولويات رعاية المسنين وأن يتم اللجوء إليها فقط في الحالات والظروف الخاصة التى لا تتوفر لها الرعاية الواجبة من خلال الترتيبات المجتمعية التقليدية كالأسرة والجيرة والمنظمات المحلية ، أو تلك الحالات التى تتطلب نوعاً خاصاً من الرعاية لا تستطيع هذه التنظيمات التقليدية القيام به .

ولقد سبق أن أشرنا إلى أن الإسلام يعتبر الأسرة هى المؤسسة الأساسية والمحورية المسئولة عن مسنيها في إطار التكاليف الشرعية ، فالمسئولية تقع على الأسرة وذوى القربى والجيران ، والمجتمع المحلي ، أما في الحالات الاستثنائية مثل عدم وجود أسرة أو أقارب للمسن أصلاً ، أو في حالات رفض الأسرة أو مقاومتها القيام بتقبل أحد مسنيها ورعايته داخلها ، إما لعدم توفر الإمكانات أو الظروف ، أو لاستحالة القيام بذلك لأسباب اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية في ضوء ظروف الحالة الصحية (جسمية أو عقلية) للمسن ، هنا تبدو الحاجة ملحة – لا سيما مع فقدان الأسرة الحديثة للمقومات الأساسية التى كانت تجعلها

---

(١) محمد عودة :"مشكلات مرحلة الشيخوخة" ، دراسة ميدانية لعينة من المسنين ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، عدد (٢٣) ، ١٩٨٦، ص٤٩ .

(٢) طلعت منصور غبريال : "دراسة فى الاتجاهات النفسية نحو المسنين لدى بعض الفئات العمرية في المجتمع الكويتى"، مجلة العلوم الاجتماعية ، الكويت ، ربيع ١٩٨٧ ، ص٧٢ .

(٣) بدرية شريف عبد الوهاب : "نظرة الشباب نحو المسنين – دراسة تجريبية لطلاب كلية الآداب بسوهاج" ، المؤتمر الدولى للصحة النفسية للمسنين ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

قادرة على القيام بوظيفة الرعاية لأفرادها المسنين - للبحث عن بدائل للأسرة تقوم بهذه المهمة ، ومن بين هذه البدائل بطبيعة الحال الرعاية المؤسسية . غير أننا نؤكد هنا على بعض الاعتبارات التى ينبغى وضعها موضع الاهتمام بالنسبة لهذا النمط من الرعاية في ضوء التصور الإسلامي نجملها فيما يلى :

- أن تكون هذه المؤسسات جزءاً من المجتمع المحلى تتفاعل معه ويتفاعل معها وألا تقتصر على المسنين فقط وإنما ينبغي أن تستقبل أصدقاء المسن وزملاءه وأقاربه كنوع من استمرارية العلاقات الاجتماعية ، كما يتضمن ذلك أيضاً خروج المسنين النزلاء إلى المجتمع المحلي في برامج منظمة لتوثيق صلتهم بالمجتمع ولتفادي العزلة التي تفرضها الإقامة في مثل هذه المؤسسات .

- التدقيق في اختيار العاملين بهذه المؤسسات بحيث يكونوا من المشهود لهم بالصلاح والتقوى والرغبة في إرضاء الله تعالى والتحلى بصفات التقوى والرحمة وحب الناس ، حتى ينعكس ذلك على أسلوب تعاملهم مع المسنين وعلى المناخ الذي يسود الحياة داخل هذه المؤسسات .

- أن تقوم هذه المؤسسات على إشباع الحاجات الروحية وأن تعتبر البعد الروحي محوراً تدور حوله كافة ألوان الإشباعات الأخرى ، ونشير هنا إلى أن الإحساس بالعزلة يتفاقم إذا كانت صلة الإنسان بربه ضعيفة أو مقطوعة ، والمؤمن العارف با لله والذي يكون على صلة وثيقة به لا يتطرق إليه الإحساس بالعزلة أو الوحدة أو الملل لأنه يشعر دائماً أنه في معية الله عز وجل يأنس به ويستمد منه العون والتأييد الذي يجعله أكثر صلابة في مواجهة المشكلات والصعوبات التي تعترضه. قال تعالى : ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾(١) وأن راحة المؤمن في توثيق صلته با لله عن طريق أداء العبادات التي افترضها الله عليه ، فعن الصلاة كان الرسول ﷺ يقول : «أرحنا بها يا بلال» ولذلك ينبغي أن تهتم هذه المؤسسات بتكثيف الجرعات الإيمانية للمسنين والتي تحقق لهم التوازن النفسي.

- التركيز على إيجاد شكل من أشكال التعاون بين هذه المؤسسات وبين المؤسسات والهيئات الأخرى القائمة في المجتمع المحلى والقومي مثل الهيئات الخيرية ، ومؤسسات رعاية الشباب (أندية ومراكز الشباب) والمدارس والجامعات ومعاهد العلم لتهيئة المناخ الملائم للتكامل والتواصل بين الأجيال ، والاستفادة من جهود الشباب من خلال هذه المؤسسات في رعاية المسنين ، ولتعديل الاتجاهات السلبية التي قد تكون لدى الشباب نحو المسنين ،

---

(١) سورة النحل : الآية ١٢٨ .

فضلاً عما يمكن أن يؤدى إليه ذلك من التخفيف من مشاعر الاغتراب والإحساس بالوحدة والعزلة لدى النزلاء وإشعارهم بقيمتهم وأنهم ما زالوا مقبولين ومرغوباً فيهم ، وأخيراً يمكن أن يستفيد هؤلاء الشباب من خبرات وتجارب المسنين من خلال احتكاكهم بهم وقربهم منهم .

سياسات التنمية والمسنين :

ونأتي إلى النقطة الثالثة والتي تتمثل في أن سياسات وخطط التنمية وضعت على أساس اعتبار المسنين بعيداً عن إمكانية المشاركة الجادة أو الفعالة في العمل الإنتاجي ، مما يضاعف من إحساسهم بالعزلة ، ويرجع ذلك – كما سبق أن أشرنا – إلى النظرة السلبية لمرحلة التقدم في العمر على أنها مرحلة العجز وفقدان القدرة على مواصلة العمل والنشاط ، وهي نظرة سبق أن أوضحنا خطأها وخطورتها في نفس الوقت . ونضيف هنا أن استمرار المسن في العمل والعطاء ومشاركته الإيجابية في مختلف مجالات الحياة لا يعني تأمين الجانب الاقتصادى للمسن والمتمثل فى مصدر دخل مستمر فحسب ، – فإن هذا الجانب على أهميته بالنسبة للمسن يبدو أقل بالنسبة للجوانب الأخرى التي يحققها العمل والنشاط في حياة المسن ، لعل منها :

– ضمان حسن توافق المسن نفسياً واجتماعياً ومقاومته للتدهور العقلي والنفسي الذي يمكن أن يتعرض له في هذه المرحلة .

– التخلص من الفراغ والشعور بالوحدة والعزلة والإحساس بعدم الفائدة المصاحب للخمول والكسل والانقطاع عن العمل والانسحاب من الحياة ، ولعل ذلك هو السبب فيما أشارت إليه نتائج بعض الدراسات من أن الأشخاص في كل المستويات المهنية يميلون إلى النظر إلى التقاعد نظرة سلبية(١).

– أن العمل يساعد المسنين على حل الكثير من مشكلاتهم الاجتماعية وتأمين فرص الصداقة والعلاقات الاجتماعية والإبداع والمكانة الاجتماعية .

– الفائدة التي تعود على المجتمع ككل والمتمثلة في دعم الجهود التنموية والاستفادة من قدرات وإمكانات خبرات كبار السن واستثمارها لصالح المجتمع في برامج ومشروعات تلائم هذه الفئة من الناس بدلاً من حرمان المجتمع من عطائهم وجهودهم ، وخاصة وأن لديهم قدرات كامنة يتمثل بعضها في وفرة الوقت والخبرة ، وحاجتهم إلى تحقيق الذات

---

(1) Gordon F. Streib & wayne E.thompson ; personal and social Adjustement in Retirement",in wilma donalsue & clark Tibbitts, (eds) "the New Frontiers of Aging" an Arbor, university of Michigan press, 1957, p . 180 .

والشعور بالقيمة والرضا عن النفس ، إن إدماج المسنين في أنشطة المجتمع بدلاً من عزلهم والعمل من أجل إيجاد أدوار بديلة عن تلك التي فقدت نتيجة للتقدم في العمر والتقاعد ، يمكن أن يؤدى إلى تدعيم بقية الخدمات بحيث يؤثر في تحقيق أهداف الرعاية الاجتماعية للمسنين[1] .

٧- بين العمل مع الكبار والإعداد للكبر :

الواقع أن النظرة التحليلية للسياسات الاجتماعية إزاء المسنين تشير بوضوح إلى أن هذه السياسات يكاد ينحصر اهتمامها في العمل مع المسنين فقط ، دون أن يتعداهم إلى العمل مع غيرهم من الفئات الأصغر سناً وبعبارة أخرى فإن هذه السياسات تقتصر على من وصلوا إلى مرحلة الكبر دون الاهتمام بإعداد الإنسان لهذه المرحلة منذ المراحل المبكرة من حياته . إن هذه النظرة القاصرة تتجاهل حقيقة ينبغى التنبه لها وهي أن معظم مشكلات الشيخوخة إنما هي مشكلات يمكن الوقاية منها وتحاشيها أو على أضعف الاحتمالات تأخيرها بإجراءات وسلوكيات وعادات يلتزم بها الإنسان في مراحل عمره المبكرة ، فالوقاية والتربية الصحيحة (الشاملة لكل أبعاد وجوانب الشخصية الإنسانية) تبعد شبح أمراض الشيخوخة وتقلل من آثارها ومشكلاتها أو على الأقل ظهورها ، كما أن الهوايات والمهارات المبكرة تعاون على مواصلة الحياة الإنتاجية في مجالات جديدة للمسنين بعد عجزهم عن القيام بأعمالهم الأصلية التي تتطلب جهداً بدنياً خاصاً ، وهذا يعني أن التعامل مع قضايا المسنين يقتضي العمل مع مراحل الطفولة والفتوة والشباب والرجولة لإعدادهم وتهيئتهم لمرحلة الكبر[2] .خاصة وأن الاتجاهات الحديثة تنظر إلى الشيخوخة على أنها عملية دائبة مستمرة على مدى العمر كله ، وينبغي التأكيد على أن إعداد السكان للمراحل المتأخرة من العمر جزء لا يتجزأ من السياسات الاجتماعية[3] .

والإسلام ينظر إلى الشيخوخة على أنها الثمرة الحقيقية ، والمحصلة الطبيعية للمراحل السابقة في حياة الإنسان ، فإن كان الإنسان في شبابه وكهولته (من الأربعين إلى الخمسين) صالحاً فإن هذا الصلاح ينسحب على مرحلة الشيخوخة ويمتد إليها ليصير المسن صالحاً

---

(١) محروس محمود خليفة : "دراسة الوضع الراهن لرعاية المسنين في المملكة العربية السعودية ، البرامج والمؤسسات" ، المنامة ، البحرين ، الندوة العلمية لرعاية المسنين بالدول العربية الخليجية ، ١٩٨٢ ، ص٦٥ .

(٢) على فؤاد أحمد : "العمل الاجتماعى مع المسنين" في : عزت سيد إسماعيل وآخرين : التقدم في السن دراسات نفسية اجتماعية ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٤ ، ص١٨٧ .

(٣) إبراهيم خليفة – عبد الله الشمرى : "الاستفادة من القدرات الكامنة لدى المسنين لرعاية الطفولة فى الوطن العربى" مجلة المستقبل العربى ، العدد (٦٧) سبتمبر ١٩٨٤ ، ص٥٣ .

يعرف ربه - عز وجل - حق المعرفة ، ويمتليء قلبه بالرحمة ، وإن كانت المراحل السابقة فساداً وهوى وضلالاً وتيهاً فإن ذلك ينسحب على الشيخوخة فيكون صاحبها في نقمة وعذاب وآلام وربما يبلغ أرذل العمر ابتلاء واختباراً له(١).

وفي هذا السياق نفهم معنى قول رسول الله ﷺ ((وشاب نشأ في عبادة الله .. الحديث)) حين عده من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله(٢) .

كما ينبغي الاهتمام ببرامج الإعداد للتقاعد والتي تستهدف التخفيف من حدة الاضطرابات العاطفية التي يواجهها كبار السن من ناحية ، والتخفيف من الآثار المادية الناشئة عن التوقف عن العمل وازدياد أعباء المعيشة في سن الشيخوخة من ناحية أخرى .

٨- بين اضطرار المصلحة والالتزام الشرعي :

لقد سبق أن أوضحنا أن الاهتمام بالمسنين في المجتمعات الغربية (وخاصة في الولايات المتحدة) قد تأثر كثيراً بقدرة المسنين على تنظيم أنفسهم وفرض ضغط سياسي لصالحهم كقوة سياسية ، وفي هذا الإطار جاء الاهتمام بالتخطيط المجتمعي لرعاية كبار السن في أمريكا كنتيجة طبيعية للجهود والضغوط التي مارسها المسنون من خلال حركة المسنين الأمريكية في عام ١٩٦٥ حيث نجحت هذه الحركة في إرغام الحكومة الأمريكية على توفير الأموال المساعدة على بناء مؤسسات للمسنين وتطوير الخدمات المختلفة لرعايتهم(٣) .ولا شك أن هذا الأمر يترتب عليه أن المسنين لا يستطيعون الحصول على حقوقهم إلا من خلال منظمات سياسية دفاعية تمارس العمل في ظل عمليات سياسية معقدة ومتشابكة ، البقاء فيها لمن يملك القوة على العملية السياسية ، كما أن ترك الأمور للصراع "ديمقراطياً" بين جماعات المصالح المختلفة قد أدى - حسبما يشير (رجب)- "إلى كثير من الفوضى والاضطراب في برامج الرعاية الاجتماعية"(٤) .

---

(١) على فؤاد أحمد : "العمل الاجتماعى مع المسنين" في : عزت سيد إسماعيل وآخرين : التقدم في السن دراسات نفسية اجتماعية ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٤ ، ص١١٨ .

(٢) رواه البخاري .

(3) Elaine M . Brody ., "Aging" in Encyclopedia of social work, Vol 1, N . Y ., National Association of social workers, 1971 .

(٤) إبراهيم عبد الرحمن رجب : "التوجيه الإسلامي للخدمة الاجتماعية" بحث مقدم إلى مؤتمر التوجيه الإسلامي للعلوم ، جامعة الأزهر ، القاهرة ، ٢٤- ٢٩ أكتوبر ١٩٩٢) ، ص٥٦ .

إن الإسلام لا ينظر إلى المشكلة من هذه الزاوية النفعية "البراجماتية" وإنما ينظر إليها على أساس أن المسن إنسان له كرامته التي أسبغها الله عليه ، والتي ينبغي الحفاظ عليها كما أن له حق الرعاية على المجتمع كله ممثلاً في ولي الأمر الذي ينبغي أن يتحمل مسئوليته وأن يؤدي ما أوجبه الله عليه من واقع استشعاره لخطورة موقعه في المجتمع الإسلامي .

ولذلك فإن رعاية المسنين في الإسلام إنما تقوم على قاعدتين بينهما ارتباط وثيق :

– الأولى تتعلق بالتكافل الاجتماعي العام بين أفراد المجتمع بدءاً ، من الأسرة وانتهاء بالأمة الإسلامية مروراً بذوي القربى ، وعلاقات الجوار ، والمجتمع المحلي ، والمجتمع القومي .

– الثانية : مسئولية الدولة الإسلامية عن ضمان مستوى الكفاية أو حد الكفاية من المعيشة لكل أفراد المجتمع الإسلامي كحق أساسي لهم قبلها ، ويؤكد (رجب) على هذه المسئولية بقوله : أما بالنسبة لتدخل الدولة في تقديم برامج الرعاية الاجتماعية فإنه لا يقوم – في التصور الإسلامي – على مجرد الاستجابة للضغوط السياسية الضيقة أو الاستجابة لتوازنات القوى المتطلبة ، وإنما يقوم على شعور الحاكم" بالمسئولية أمام الله تعالى "في ضوء ما شرع من حقوق للعباد ، على الوجه الذي يرى فيه عمر مثلاً أنه لو عثرت بغلة في العراق لكان متحملاً للمسئولية عما أصابها وفي صورة تتناقض بشكل صارخ مع ما تشير به المكيافيلية أو البراجماتية القصيرة النظر التي تستشري في نظم الحكم الحديثة في المجتمعات المعاصرة"(١) .

وإلى هذا المعنى تشير العديد من النصوص نذكر منها سبيل على المثال : "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ... الحديث"(٢) وحديث : "ما من عبد يسترعيه الله رعية ويموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة"(٣) وهي رواية مسلم : "ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة"(٤) .

وهكذا فالوظيفة الأساسية للدولة في الإسلام هي حماية المصالح ومن أهم هذه المصالح التي تشتد الحاجة إليها تأمين الضمان الاجتماعي عن طريق مسئولية الدولة ممثلة في الحاكم

---

(١) إبراهيم عبد الرحمن رجب : "التوجيه الإسلامي للخدمة الاجتماعية" بحث مقدم إلى مؤتمر التوجيه الإسلامي للعلوم ، جامعة الأزهر، القاهرة ، ٢٤– ٢٩ أكتوبر ١٩٩٢) ، ص٦١ .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم .

عن المحتاجين والفقراء ، والأيتام والمسنين ، وغيرهم ، والمسنون – في التصور الإسلامي – لهم حقوق متساوية ومماثلة تماماً لحقوق الآخرين في الحياة والعيش الكريم الذى يحفظ عليهم كرامتهم وآدميتهم ، ورعايتهم فرض شرعى على ولاة الأمور القيام به امتثالاً لأمر الله – عز وجل – وطاعة له .

٩– بين مفهوم الوطن ومفهوم الأمة :

يتفق الباحث مع ما قرره "يونس" من أن سياسة الرعاية الاجتماعية في معظم الدول الإسلامية ، ونتيجة لتأثير التجربة الغربية تقوم على أساس الجنسية أو المواطنة ، بمعنى أن المسلم لابد أن يكون متمتعاً بجنسية الدولة التى يقيم فيها حتى يتمتع بخدمات الرعاية الاجتماعية ، ومعنى ذلك أن يعامل المسلم معاملة الأجنبى في بلاد المسلمين الأمر الذي يجافي المنظور الإسلامي للرعاية الاجتماعية الذي يمتد ليمثل الأمة الإسلامية(١) . والواقع أن فكرة القومية أو الوطنية هي فكرة دخيلة على الإسلام وهي فكرة غربية بدأت في أعقاب الثورة الفرنسية ، وهي تعنى التجمع الوطنى بعيداً عن الدين ، ويشير "جون ستيوارت ميل" إلى مفهوم القومية بقوله : "إن القومية تجعل الناس لا يهتمون بحقوق أو مصالح أي جزء من الجنس البشري فيما عدا ذلك الذي يطلق عليه نفس اسمهم ويتكلم نفس لغتهم التى يتكلمون بها هم أنفسهم"(٢) .

والإسلام يرفض الحدود المصطنعة بين المجتمعات الإسلامية ، ويقوم على وحدة الأمة الإسلامية: ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾(٣) .

ووفق هذا التصور فإن سياسات الرعاية الاجتماعية والاستفادة من برامجها تقوم أول ما تقوم على رابطة العقيدة والدين ، لا على المواطنة أو القومية فحسب ، وتأسيساً على ذلك يصبح للمسلم حق على المجتمع والدولة المسلمة ، حتى ولو لم يكن من مواطنيها ، كما أن لغير المسلم الحق بالانتفاع بخدمات الرعاية الاجتماعية طالما كان يعيش في كنف الدولة الإسلامية .

---

(١) الفاروق زكى يونس : "سياسة الرعاية الاجتماعية من منظور إسلامي" ، بحث مقدم إلى ندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، (١٠-١٣ أغسطس) ، ١٩٩١ ص١٧ .

(٢) أنور الجندى : "الإسلام نظام مجتمع ومنهج حياة" ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٩ ، ص٢٣٩ .

(٣) سورة المؤمنون : الآية ٥٢ .